

AL-NA'URI

'A'ID ILA AL-MAYDAN

RE

Princeton University Library



32101 081685560



عيسى الناعوري

عائشة

الحبيب

والجسد



دار البراءة

كلب

حائِرُ إِلَى الْمِيرَاجِ

مجموعۃ افاصیصی

1

۱۵۱۵۱۵

۱۵۱۵۱۵

al-Nā'ūrī, 'Isā

عيسى الناعوري

'A'id ilā al-maydān

حائز إلى الميراث

المجموعة القصصية الثالثة

سنة ١٩٦١

جميع الحقوق محفوظة

(RECAP)

2272

7027

.311

كتب المؤلف

- ١ - ايليا ابو ماضي رسول الشعر العربي الحديث
الطبعة الاولى : دار الطباعة والنشر - عمان ١٩٥١
الطبعة الثانية: منشورات عويدات - بيروت ١٩٥٨
- ٢ - طريق الشوك (المجموعة القصصية الاولى) - نفدت
الناشر : مكتبة الاستقلال - عمان ١٩٥٥
- ٣ - مارس يحرق معدّاته (رواية) - سلسلة « اقرأ » رقم ١٤٧
الناشر : دار المعارف - القاهرة ١٩٥٥
- ٤ - أناشيدي (المجموعة الشعرية الاولى)
الناشر : دار الرائد العربي - حماة ١٩٥٥
- ٥ - خلي السيف يقول (المجموعة القصصية الثانية)
الناشر : مكتبة الاندلس - القدس ١٩٥٦
- ٦ - الياس فرحات شاعر العروبة في المهجر
الناشر :
دار النشر والتوزيع والتعهدات - عمان ١٩٥٦
- ٧ - بيت وراء الحدود (رواية)
الناشر : منشورات عويدات - بيروت ١٩٥٩

١٢-٢٧-٦٥ ١٩٥٩

٨ - ادب المهجر (دراسة ادبية شاملة ، في ٦٢٨

صفحة ، قطع كبير)

الناشر : دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩

٩ - أطفال وعجائز (مجموعة أقاصيص مترجمة عن الإيطالية)

الناشر : دار المعارف - بيروت ١٩٦١

١٠ - عائد الى الميدان (المجموعة القصصية الثالثة)

الناشر : دار الرائد - حلب ١٩٦١

(عدا بعض الكتب المدرسية ، وكتب الاطفال)



مؤلفات اخرى تصدر قريباً

١ - أدباء ومستشرقون عرفتهم في ايطاليا (رحلة وتعريف)

٢ - ليلة في القطار (رواية ، من وحي رحلة ايطاليا)

٣ - من الشعر الايطالي الحديث

(مختارات شعرية لعدد من شعراء ايطاليا المعاصرين)

٥ - أخي الانسان (المجموعة الشعرية الثانية)

٥ - النهضة الادبية في ضفتي الاردن (دراسات ونماذج)

عيسى الناعوري

محاضر إلى السيد راج

الطبعة الاولى

كانون الاول سنة ١٩٦١



حلب

الجمهورية العربية السورية

دار الرشيد

المقدمة

بقلم

الاديب المعروف الاستاذ خليل هندراوي

صاحب هذه المجموعة القصصية الاستاذ عيسى الناعوري أديب مرموق طالما خاض ميادين عدة متنوعة في عالم الادب . قد عرفناه شاعراً رقيقاً انفعلاً مع الاحداث ، وكاتباً للمقالة التي كانت مرآة فكره ووجدانه ، ومترجماً واسع الاطلاع ، دقيق الموازين في دراساته الادبية ؛ واليوم نراه في هذه المجموعة القصصية قصصاً بارعاً .

تضم هذه المجموعة عدة قصص قصيرة تذهب مذاهب مختلفة في اتجاهاتها ، ويبدو أن صاحبها كتبها في فترات متقطعة يغلب فيها عنصر المناسبات . وفيها قصص تكاد تتحد فيها الغاية ، بل تتشابه فيها الحوادث ، كتلك القصص التي

استوحاها من مناسبة قومية كقصة « عائد الى الميدان » وقصة « من بور سعيد » . فالاولى قصة شاب جندي ، ليس لأمه العجوز سواه ، قد أبلى بلاءً حسناً في معركة فلسطين ، وأصيب بجراح قاتلة نراه في المستشفى ، في غيبوبة ، وعلى سريريه تلك الأم الذاهلة التي تنتظر مصير ولدها ، هذا المصير الذي تريد أن تستطلععه من فم الطبيب . ويشاء القدر ان ينجو ويسلم ولكنه يسلم ليعود ثانية الى الميدان فيذهب ، بينما الأم ترضى بما نالت من حصّة ولدها ، فليأخذ الوطن الآن حصته منه والقصة الثانية تدور حول فتى وفتاة متحابين تباريا في التضحية والفتى نفسه مصاب باصابة قاتلة ، يرسل انفاسه بينما المدينة تنصب عليها الضربات المدمرة ؛ والفتاة - فجأة - تنزل كمرضة على المستشفى ، فتلقى حبيبها ، فتلزم سريريه ، وترى كيف تختفي ومضات الحياة من عينيه وبدلاً من ان يحملها هذا المشهد على اليأس ، يستيقظ في نفسها الشعور بالتضحية من أجل حبيبها . أليس السكل الآن في هذا المعترك أحياء لها كحبيبها فلتكمل رسالة حبها للجميع .

بطل القصة الاولى مجهول المصير . . . ليس له مايشده
بالحياة الا تلك الأم العجوز . . . والبطلة الثانية حملت
جرحها بصمت . . . وتحاول ان تواسيه بالتضحية . ولا شك
انها واسته وعزت روحه - اذا بقيت حية - بانتصار مدينتها
على قوى الشر والظلام .

الابطال هنا يصابون ، ويموتون . . . ولكنهم يفارقون
الحياة برضا ، لأنهم أرادوا الموت بارادتهم ، ليكملوا واجبا
مقدساً عليهم . . .

وهكذا ندرك ان الكاتب يبني لقصته البناء الهادف...
ويبدو ان الكاتب له مذهب معلوم لا يحد عنه في
« الاستهداف » . ولا شك ان الاستهداف في القصة يستخدم
الواقع لا ليبقى واقعاً ، بل يحوِّله الى طاقة تتمثل فيها فكرة
مشالية . وكثيراً ما يجني الاستهداف على مجرى القصة ،
ويضغط على الابطال ليخرجهم من واقعيتهم ، ويقيدهم
بمثاليتهم . . . ولذلك كان هنا كاتب القصة الهادفة يتعرض
لزلات فنية اذا لم يؤاخ بين الواقع وبين ما يرمي اليه . ويظهر

ان الاستهداف في هذه القصص كان يطلبه الكاتب بل يلح عليه ، بل لا يكتب منها الا ما يجد فيه « الاستهداف » .

واذا كان الاستهداف في هاتين القصتين قومياً ، فانه قد يكون اجتماعياً يرمي الى اصلاح المجتمع كما نرى في قصة « مذكرات والد » حيث يمزج التحليل النفسي بالمغزى الاجتماعي . . . فالوالد هنا رجل مثقف كبير ، قد تجاوز عصره . . . ولم يرد ان يعترف بأن الزمان يتبدل ، وان الاولاد خلقوا لزمان غير زمانه . حتى اذا عرف ان ولده في حياته الجامعية بلندن يتصل بزميلات له ، ويخرج معهن الى الزهة ، . . . ويلهو معهن لهوا بريثا ، رأبناه ثور ثأرته ، وينصب غضبه على ولده الذي يخون - بحسب اعتقاده - امانة الدراسة . لكنه وهو العاقل المثقف يأخذ قليلاً قليلاً بالرجوع الى نفسه ، فيحلل عوامل غضبه ، فاذا هي تندفع من شبه الغيرة . . . الغيرة من هذه الحياة الجديدة التي لم يمارسها هو في بيئته المكبوتة . . . واذا هو يعود الى انصاف ولده ويترك له الحياة كما تطورت الحياة .

وهنا في هذه القصة التي تعالج مشكلة ضخمة من مشاكل حياتنا نستطيع ان نجاري الكاتب من ناحية ، ونستطيع ان نعارضه من ناحية. فنحن مع الكاتب في وجوب تحرير الابناء من قيود الآباء التي تختلف اسبابها ، وبخاصة اولئك الآباء الذين يريدون ان يرسموا صورة ابناءهم على صورتهم ، مع ان الزمان يتطور والعادات تتغير . وهذا مجتمعا - مثلاً - نراه كل يوم يتزحزح عن تقاليده ، ويستقبل الحياة الطليقة ، لأن العادات المتجمدة لا تشكل فضيلة . ولكننا - من ناحية ثانية - هل يمكننا ان نجري في تحليل محافظة هذا الوالد كما جرى الكاتب ؟ وهل نستطيع ان نقول مع كل والد ما قاله أبو فارس بعد ما وصل الى الحقيقة : « لقد كشف لي ابني فارس اليوم عن نفسي ، واراني اياها على حقيقتها بذكراته ؛ فما كانت ثورتي عليه غيرة على الاخلاق والآداب ، ولا حرصا على المال الذي ارسله اليه ، ولا كانت قسوتي شيئاً مما ورثته عن والدي » .

واذاً ، فمَ كانت هذه الثورة ؟

انه يعلمها بقوله : « أكاد أسمع كل جارحة فيّ تهمني ،
بملاء القسوة ، بأن كبتي وحرمانى ايام الشباب ، وادبار
الحياة عني اليوم ، واقبالها بكل مفاتها ومباهجها على أولادي ،
هي السبب في عنفي وقسوتي على هؤلاء الابناء الشبان . »

كأنى بالكاتب يريد ان يفسر العلة من الناحية
الغريزية ، ويسلك الى تفسيره هذه الطريقة التحليلية . . .
ولكنه غاب عنه ان هذا التحليل اذا صدق مع بطله هذا فانه
يصدق لسبب واحد ، هو ان هذا البطل « والد » شاذّ ، لم
تفتّح فيه طاقة الابوة التي هي ابعد مدى ، واسمى غيره . . .
وكلنا والد في هذا المجتمع . . . وقلما استولت على نفس والد
فيما مثل هذه الوسوس .

ويعجبني في هذه القصص الهادفة شخصية «منصور بك»
الذي يعيش بلحمه ودمه في مجتمعا . . . انه فنى طموح ،
اعتقد بأن ارتقاء درجات الحياة يتبع نظاما عادلاً . ولذلك
يجدّ ليحرز لقب « بك » كما يقدره ابناء مجتمعه ، وقد تعرف
الى فتاة احلامه التي تنتظر منه تحقيق طموحه قريباً . ولكن

الايام تمرّ ، وهو جامد في مكانه ، بينما غيره ، من هم أقل حظاً من علمه وجده وعمله ، يرتقون سريعاً من درجة الى درجة . . وما علة ذلك الا لانهم يتملقون رؤساءهم ويبدلون اباؤهم . فاصبح « منصور » شخصية يشفق عليها اهل الحي ، لانه غير كفء ولا اهل للترفيه ، واصبحت محبوبته تنجل من منزلته . وفي ذات يوم ترك منصور الوظيفة والوطن ، واتجه الى المهجر ؛ وهناك تفتحت مواهبه للعمل ، او بالأحرى ، وجد الرؤساء الذين يقدّرون الفتي لعمله ، فاذا هو يرتفع ، واذا هو يكمل دراسته في الهندسة ، ويربح الاموال الطائلة التي يستغلها اهل في البلد ، وهكذا صار « منصور » شخصية جديدة جدرة بالتقدير ؛ والناس لا يعرفون مهازل القدر حين جعل منهم مهازل . . . وفي المهجر يتزوج رفيقة له تقاسمه العمل ، لكن القدر لم يتم سعادته بها ، اذ ماتت بمرض عضال ، وعاد الى وطنه وحده ليعمل فيه . فما اذهله الا ان القوم بصافونه وينادونه بلقب « بك » ، هذا اللقب الذي أحبه في مطلع حياته ، والآن لا اشد كرها عليه منه ! ان محبوبته لا تزال الفتاة التي تنتظر . . . وقد حقق القدر لها ثمرة

انتظارها .

هذه القصة ، على كثرة الحركة والمفاجأة فيها ، يستبد بها الاستهداف ايضاً ، من حيث انها تعالج مرض مجتمعا الذي لا يزال ينخدع بالقيم التي لا تعتمد على الكفاءة والعدالة الاجتماعية ، وانما تعتمد على الوساطات والوجاهات التي طالما وأدت المواب ، وألتهت المثالب .

ومثل هذا الاستهداف نراه ايضاً في قصة « قلوب طيبة » وما أصحاب هذه القلوب الا الاطفال الذين لم يفسد المجتمع براءة قلوبهم ، ولم تجعل في عالم الطفولة حدوداً بين اطفال واطفال .

اما القصة التي تكاد تنفرد بلون في خاص ، وتحليل نفسي عميق ، وضبط انساني دقيق فهي قصة « استغراق » قصة ذلك الفتى الذي ملّ حياة الدير ، واراد الفرار منه ، الا ان قريته التي تدرس معه هددته بالفرار معه ؛ فبقي عاماً آخر ، ثم آثر الفرار دون ان يراها ، وهو معتقد بأن نظره الى الحياة سيتبدل ، لان الحياة ستعيد صحة البصر الى عينيه ،

وصحة الادراك الى عقله . . . وهكذا كل شيء جديد فيها ،
وكل شيء جميل ؛ ولكن البطل ينهي قصته بهذه الكلمة :
« شيء واحد كان من قبل جميلاً في عيني وحبیباً الى نفسي ؛
وها هو الآن معلق امامي على جدار الكنيسة فوق الهيكل ،
وما زال جميلاً في عيني وحبیباً الى نفسي كما كان من قبل :
صورة المسيح الطفل والخروف الابيض الصغير الراقداً أمامه
بلاء البراعة والوداعة ! »

وهكذا تنتهي القصة بأن تدور في حلقة واحدة، لان
الجمال هو الجمال ، والوداعة عنصر من اجمل عناصر الجمال .

من هذا الجمال البسيط الوديع نستطيع القول ان
الاستاذ الناعوري راح يستمد البساطة البعيدة عن التعقد ،
ليجعل ابطال قصته يتحركون فيها ، فلا هو الى الغموض ،
ولا هو الى الفن المعقد الذي يجعل ابطاله يمثلون اكثر مما
يعيشون . والحوادث انما تدور وسط اطار محدود ، لا
زخرفة فيه ، تمشي الى غايتها بدون عوج ولا التواء ؛ وربما
لم يعجب هذا المذهب بعض كتاب القصة ، ممن يرون ان

القصة كينبوع الماء ، لا بد ان يعرج على سراديب ملتوية في
أعماق الارض قبل ان يجد منفذا له .

على ان تركيز الكاتب على الاستهداف جعله يستبد بكل
دوافع القصة ، ويستغل كل مقوماتها للوصول الى الهدف
الذي يضعه في ذهنه قبل ان يضع القصة ، ولذلك لاحظت ان
جو القصة يتحول في كثير من الاحيان الى الجو المقالي ،
وبخاصة عندما يريد الكاتب ان يفرض آراءه وأهدافه ، مع
ان هذا الاسلوب يمكن الاقلاع عنه ، بحيث يترك للقارئ
ان يفكر بنفسه دون ان يفرض عليه اي تفكير .

وعلى كل حال ، اهلا بهذه المجموعة الرائعة التي تمشي
على استحياء الى غايتها المثلى ، واهلا بكاتبها الذي يضافح كبار
القصاصين ابداعا واتباعا ، وتفكيراً وتعبيراً .

خليل الهنداوي

- مع السلامة يا ولدي ! عد
الى الميدان ، ودعني أذكرك
في كل مجلس باعزاز وفخر .
إن حصتي فيك ليست أكثر
من حصّة وطنك وأمتك ؛
وقد أخذتُ منك حصتي ،
فأعطِ وطنك وأمتك حصتها !

إمام إلى الميزان

ما لتلك السيدة العجوز جالسة إلى جانب السرير في
المستشفى ، ومنديلها بيدها مبتل "بأ كمله بالدموع المنهمة
بغزارة من عينيها الملتهيتين كالجزر ؟

ليس ذلك اليوم يومها الأول هناك ؛ لقد جاءت أمس
أيضاً في مثل هذا الموعد ، وجاءت كذلك أمس الأول حين
بلغها نبأ إصابة سلمان في المعركة الكبيرة التي كانت دائرة في
باب الواد ؛ وفي كل مرة كانت تنتحب بمرارة محرقة ، وتنتظر
إلى جانب السرير ساعات كلها قلق ، لعل "سلمان يصحو من
غيبوبته فيكلمها ، يقول لها شيئاً يطمئنها إلى أن هناك أملاً في
عودته إلى الحياة ؛ وسلمان لا يصحو ، ولا يطمئنها ؛ ولكنه
يهذي دون انقطاع منذ أن دخلت عليه في هذا اليوم الثالث ،
وجسمه يهتز في السرير عنيفاً غاضباً أحياناً ، وأحياناً متناقلاً
متراخياً .

كان إذ ذاك يهذي بالمعركة ، فيصيح كأنه يهاجم
اليهود ، ويحرك يديه كأنه يطلق النار متلاحقة من مدفع

(فيكرز) ، ثم يتوقف قليلاً ، ويعود بعد ذلك الى الصياح من جديد بكلام غير مفهوم ؛ وأمه تراقبه بجزع ولهفة وحنان ، وما تدري : أتفرح لهذيانه مستبشرةً بعودته الى الحياة ، أم تحشى أن يكون ذلك نذيراً بقرب اجتيازه البرزخ الضيق الى الأبدية .

ليت الطبيب يدخل فيزيل جزعها ! أو على الأقل ليت الممرضة تجيء لتزيل وساوسها وهواجسها ! ولكن لا الطبيب يدخل ، ولا الممرضة تجيء ؛ وهذان الجندي الجريح يعلو ويخفت ؛ يتوقف قليلاً ثم يعود من جديد ؛ ودموع السيدة العجوز تنهمر بلا انقطاع ، وعيناها المحمرتان كالجزر تحرقان في الوجه الذي تعلوه اللقائف البيض ، وتحيط به كأنها الخوذة المحكمة الشد حول رأسه وعنقه .

ولم تطق السيدة صبراً ، فنهضت عن مقعدها وانسلت من باب الغرفة تبحث عن الطبيب أو الممرضة . وعند باب الغرفة التقت بالطبيب نفسه ، فجثت عند قدميه باكية ضارعة :
- إنه يهذي يا دكتور ... إنه يهذي دون انقطاع !
فربت الطبيب على كتفها وأنهضها عن الأرض .

- الى الميدان -

فتراكضت الكلمات متدحرجة من بين شفيتها :
- طمّني يا دكتور ، هل سيعيش سلمان ؟ هل سيعود
الى الحياة ؟ !

فلم يجب الطبيب ، بل دخل معها الى الغرفة ، ثم تقدم
من سرير سلمان ، وكان هذا ما يزال يهذي ؛ وسمعه الطبيب
يصرخ :

- آخ !! قتلوني ... قتلوني الكلاب !
ثم انقطع عن الهذيان ، وهدأت حركة جسمه على
السريّر . فطار قلب الأم هلعاً ، وراحت عيناها تنتقلان
جزعتين ضارعتين بين السرير وعيني الطبيب الذي أخذ يجس
نبض سلمان صامتاً .

ونظر الطبيب الى العجوز باسماً ، فأشرق قلبها كأنما
حملت اليها ابتسامته ألطف ما في أشعة الشمس من نور ودفء :
- دكتور ! هل يعيش ؟ !

وعادت يد الطبيب تربت على كتف العجوز بحنان
ولطف :

- اطمّني ، سلمان بخير ! ستكونينه غداً ، ولكنه يحتاج

— الى الميدان —

الى ثلاثة أسابيع قبل أن يرافقت الى البيت .
وقبل أن يصل الطبيب الشاب الى نهاية عبارته كانت
العجوز تبلل يده بدموع الشكر ، وتغمرها بالقبل الحارة
الملهوفة . فأسرع الطبيب يسحب يده من بين يديها ويقول
ملاطفاً :

— هل لك أبناء غيره ؟

وجاء صوتها مرتعشاً متقطعاً بالنجيب :

— إنه امل حياتي الوحيد يا دكتور ! لا أولاد ولا
بنات . . . عشت حياتي كلها عليه وحده ، فهو الجبل الذي
يشد حياتي وشيخوختي الى البقاء؛ فان حدث له ما يسوء — لا
سمح الله — تحطمت شيخوختي ، وانقطع كل ما يشدني الى
الحياة .

واتسعت الابتسامة المشرقة في وجه الطبيب ، ووضع
يده على كتفها وقال :

— اطمئي يا سيدتي ، إنه سيعيش لك ، وستقر بشبابه
أيامك الباقية .

— الله يحفظ شبابك يا دكتور ! لقد أعدت اليّ الأمل ،

- الى الميدان -

والى شيخوختي التعزية وجب الحياة !

وما كاد الطبيب يغادر الغرفة حتى دخلت احدى
الممرضات تعلن انتهاء وقت الزيارة . فأنحنت العجوز على وجه
سلمان تقبله ، ثم خرجت خلف الممرضة ، وعيناها الغارقتان
في الدموع تنظران خلفها الى السرير الذي تركته يحمل أمنيتهما
الوحيدة الباقية في الحياة . وعند خارج الباب أمسكت بيد
الممرضة وقالت لها ضارعة بلهفة وحرارة :

- ابني سلمان ... أستحلفك بشبابك أن تُعني بابني يا
حبيتي ! إنه شاب مثلك يا بنتي ، وهو وديعي عندك !... أغلى
وديدة لي في الحياة :

فلم تتوقف الممرضة معها ، ولكنها أجابتها بسرعة وبغير
جفاء :

- اطمئني ! غداً ستجدينه أحسن حالا !

ثم تابعت الممرضة سيرها الى الغرف الاخرى لتصرف
الزائرين منها .



قبل موعد الزيارة من بعد ظهر اليوم التالي كانت أم سلمة قد تعبت من الجلوس والوقوف في ساحة المستشفى ، فما إن فُتح الباب لدخول الزائرين حتى أسرع تقطع الردهة الطويلة مهرولة ، ثم تصعد السلم لاهثة ، وقلبها يخفق بشدة بين الأمل والخوف .

أترأه قد أفاق من غيبوبته الطويلة ؟! أتجده الآن صاحباً كما وعدتها الطبيب والمرضة ؟! أتراها ستجد الابتسامة الهادئة الحلوة ترف على ثغره من جديد ؟! أيسطيع أن يفتح ذراعيه ليستقبلها بينهما ؟! هل سيخاطبها ؟!

والتقت على رأس السلم بأحدى الممرضات ، فسألتهما ملهوفة قلقة :

- هل أفاق يا بنتي ؟ هل قال شيئاً لأحد ؟!

فزمت الممرضة جفونها وهزت رأسها وسألت :

- من هو ؟

ودون أن تتوقف العجوز أجابت وهي تسرع الخطى نحو غرفته ، غير ملوية على الممرضة :

— الى الميدان —

— سلمان ! ابني ! حبيبي ... ألا تعرفينه ؟ ! سلمان ،
ابني ! ...

ودفعت باب الغرفة دون أن تتوقف لتقرعه أولاً ،
واسرعت الى الداخل لتجد سلمان فاتحاً عينيه ، بادي اليقظة
كأنما ينتظر دخولها . فانهمرت دموع الفرح من عينيهما ،
وانهالت عليه تقبّله وتقول :

— ولدي ! حبيبي ! الحمد لله على سلامتك يا ولدي !
فابتسم لها سلمان ابتسامة أحسّت معها بأن الدنيا كلها
تضحك لها وتغني وترقص ... وقال سلمان :

— لقد اقلقتك إصابتي يا أمي ؛ اليس كذلك ؟

— انك بخير يا ولدي ! الحمد لله ! الحمد لله !

— إن دعواتك الصالحة لا ترجع عن السماء خائبة !

— السماء تحفظك لي يا ابني ! لقد حمتك من الموت لأجلي !

فتوقف سلمان قليلاً قبل أن يجيب ، ونظر نظرة عميقة
الى عيني أمه المغرورتين بدموع الفرح ، ثم امسك بيدها فوق
صدره وقال :

— لكنّ الموت ليس شيئاً مفزعاً في مثل موقفي يا أمي !

— الى الميدان —

إنه شهادة في سبيل شريف : سبيل الله والوطن ! إن الذي يدافع عن وطنه يعرف انه خارج لمقابلة الموت في كل لحظة ، ولذلك لا يخاف منه . الشُّبَّان امثالي هم الذين يُرجَّون لمثل هذا قبل سواهم !

فانحنى العجوز على سلمان تطوَّقه وتقول :

— سلامتك يا حبيبي ! لا تقل هذا ؛ لا أريد ان تموت !
يجب أن تعيش لي يا ولدي ، وان افرح بك قبل ان انصرف
عن هذه الارض !

فابتسم سلمان مشفقاً ، ولم يشأ ان يزيد من قلق أمه
وخوفها عليه . فرفع رأسها عن صدره بلطف ، وقال وهو
ينظر باسماً الى عينيها الممتلئتين بالدموع :

— أنت كل رجائي وسلوتي في الحياة يا أمي ؛ فلا تخافي
عليّ ؛ لقد احسنت تربيّتي ، وأنشأتني نشأة حسنة ، ولن يخيب
الله رجاءك فيّ إن شاء الله !



بعد ثلاثة اسابيع غادر سلمان المستشفى مع أمه وقد
شفي تماماً من جراحه ، وأصبح يستطيع ان يقضي مع أمه أياماً

— الى الميدان —

في البيت للاستجمام قبل ان يعود الى كتيتته . وكان الفرح في قلب والدته العجوز بعودته الى الحياة يختلط بخوفها من قرب عودته الى الميدان ، والى القتال . كانت تقول إنه قد ادسى واجبه ، فحسبه ما لقي ... ألا يكفي انه وصل الى حدود الأبدية ، ولم يعد منها إلا بعد أيام ملأى بالخوف والقلق والدموع والعذاب !!

ولكنّ سلمان لا يقبل منها ان تبذل أي مسعى لاطلاق سراحه من الجيش . إن الهدنة تكاد تنتهي مدتها ، ومعاودة القتال بعدها أمر لا مفرّ منه ؛ والميدان في حاجة الى كل جندي ، والى كل من يحسن استعمال السلاح ، لصدّ قوى الأعداء الذين انتهزوا شهر الهدنة لاعادة تنظيم قواهم ، ولتوفير السلاح الثقيل والخفيف لجنودهم طمعاً في احتلال ما بقي من فلسطين بسرعة خاطفة .

وقبل انتهاء الهدنة بخمسة ايام وقف سلمان امام باب البيت بألبسته العسكرية ، يودّع أمه ليعود الى الميدان . ولم تستطع امه ان تتغلب على مشاعرها ، فأطلقت العنان لدموعها وهي تطوّق عنقه بذراعيها ، وتلقي برأسها المكسّل بالشيب على

- الى الميدان -

صدره . وبقوة لم تستطع كبحها هتفت وهي تشرق بدموعها :
- سلمان ، ولدي ! لا تعد الى القتال وتركني هنا

وحدي ! ابق معي يا ولدي !

وأحسّ سلمان بمحاجته الى البكاء ، ولكنه زجر دموعه ،
وقال لأمه برقة وحنان :

- إن معر كتنا لم تنته بعد يا امي . اتردين ان يفرّ منها
ابنك فرار الجبناء ؟! لو فررت منها لحملتُ شيخوختك العار ،
أما اذا صمدتُ فيها الى النهاية ، وقضيتُ فيها شهيداً ، فسيكون
شرف الشهادة لي ولك معاً ؛ سيدعوك الناس « أم الشهيد » ،
وسأكون فخرأ لك ، وللأجيال بعدك وبعدي . إن عواطفنا
يا امي لا تحمينا من الموت . أنت وانا سنموت يوماً ما بسبب
من الاسباب ؛ وخير لمثلي ان يموت في ساحة الشرف موت
الابطال ، من ان يموت كالذبابة الحفيرة .

وتعالى نحيب العجوز ، ورأسها يعلو ويهبط على صدره ؛
ولكنها لم تقل شيئاً . كانت كلمات سلمان تعمل في نفسها ، بينما
راح هو يتابع كلامه :

- أنا تعلمت الشجاعة وحب الوطن منك . لقد مات أبي

- الى الميدان -

وأنا طفل ، وأنت عنيت بي ، وكنت تروين لي قصص الابطال
والشجعان ومغامراتهم وحروبهم ؛ فهل تصدّيني الآن وأنا
أحاول ان احقق ببطولتي أحلامك وأحلامي ، واستهين بالموت
والخوف والأخطار لأحقق الحرية لوطني والنصر لأمتي ؟!
إنك لن ترضي لي بالهزيمة ، ولن تستطيعي أن تفخري بي في
شيخوختك اذا انا فررت من الميدان كالجنباء !

فرفعت العجوز رأسها عن صدر سلمان ، ومسحت
الدموع من عينيها ، ثم راحت تنظر الى وجهه بصمت . ولم
تلبث ان قالت متجلدة :

- مع السلامة يا ولدي ! عُد الى الميدان ، ودعني
أذكرك في كل مجلس باعتزاز وفخر ! إن حصتي فيك ليست
أكثر من حصة وطنك وامتك ؛ وقد اخذت منك حصتي ،
فأعطِ وطنك وامتك حصتهما !

فأخنى عليها سلمان يعانقها عناقاً طويلاً ، وهو يقول :

- انك مفخرة لي يا أمي ! الوداع !

وانفلت من بين يديها ، ومضى في طريقه عائداً الى

— الى الميدان —

مكانه في الميدان . وكما التفت الى الخلف رأى يد أمه مرتفعة
في الفضاء تلوح له، وشفيتها تتحركان بكلام ؛ لعلها كانت
تقول له : « مع السلامة يا ولدي ! لقد اخذتُ حصتي منك ،
وانت الآن حصّة وطنك وقومك ! »



« كثيراً ما تكون دعوة
الفضيلة والأخلاق الحميدة ،
ستاراً يخفي وراءه المرشدون
والأخلاقيون رغباتهم
المكبوتة الفاشلة ! . . . »

من ذكريات دكتور

اليوم أغضبتُ ابني « فارس » . لقد قسوت كثيراً في
تعنيفه حتى أخرجته عن أطواره ، فقسا في الرد عليّ ، خلافاً
لما ألفته منه ، وقال لي في حدة غضبه : « أنت والدي حقاً ،
وانا لذلك أحبك واحترمك ؛ ولكنك حين تهينني بهذا الشكل
تجبرني على ان لا اعود احبك او احترمك ! »

وابني فارس هذا فتى في الثامنة عشرة من عمره ، جميل
وخجول ، ولم اعتد منه جواباً مهما اشتطت في تعنيفه . إن
اخوته الآخرين يخشونني كثيراً - وبعضهم اكبر منه سناً -
ولذلك يتجنبون الرد عليّ ؛ أما فارس فانه الوحيد بينهم الذي
لا يخشاني . ولكنه في الوقت نفسه يحرص على عدم ايذاء
شعوري بأي جواب فيه خشونة أو قسوة ، إلا في هذه المرة .

اني اعترف - بيني وبين نفسي - بأنني مفرط في قسوتي
عليه وعلى اخوته ، على الرغم من اني ذو ثقافة عالية . وقد
اكون ورثتُ هذه القسوة عن والدي ، الذي لا اعرف انه
ضحك قط مرة في وجهي ، ثم مضى عني وانا بعد دون

العشرين من عمري ، وخلفني لما هو اشد منه قسوةً وصرامةً وتجهماً ، إذ خلفني اصارع الحياة وحيداً .

ولكن هل للوراثة وحدها كل هذا الاثر من القسوة التي أعامل بها اولادي ، منذ طفولتهم الباكرة حتى شبابهم العارم اليوم ؟!

إنني اعلم ، بحكم ثقافتي العالية ، وتجاربي الكثيرة في الحياة ، أن العلم والتجربة اعظم اثرًا من الوراثة ، وأنهما يستطيعان أن يتغلبا على كل ما تركه الوراثة والبيئة في الانسان من العادات غير الحميدة ، ومن الطباع السيئة . فالوراثة شيء يعلق بالغريزة التي لم يهذبها العلم ولا الاختبار ؛ اما الانسان العاقل المثقف المحرب فان الذي يضبط تصرفاته وطباعه هو العقل النير المحرب .

إذن ليست الوراثة هي التي تجعلني اتصرف مع ابنائي بكثير من الصرامة والقسوة ؛ فلا بد من ان يكون ثمت سبب آخر ؛ ولعل هذا السبب الآخر هو حرصي الشديد على ان يخلو سلوك ابنائي من كل ما يستوجب التثريب واللوم . اريدهم جميعاً نماذج للأخلاق العالية ، وللبعد عن الرذائل

ومفاسد الاخلاق ، وعن كل ما تنهى عنه الاديان السماوية
والاخلاق الفاضلة .

حقاً انا حريص على ذلك كل الحرص ، ولكنني حين
اعود الى نفسي ، وأناقش الامور على ضوء ثقافتي العالية ،
وتجاربي العديدة ، ودراساتي في كتب التربية وعلم النفس ،
أرى ان القسوة كثيراً ما تقلب النتائج الى عكسها ؛ فبدلاً من
ان اسير ابنائي في نهج الاخلاق الفاضلة والتقاليد السامية ،
ادفعهم بقسوتي دفعاً الى التمرد والثورة ، والى الانطلاق من
كل ما رسمه لهم من مناهج اخلاقية ومثل عليا .

إذن ليست رغبة الاصلاح والتوجيه هي الدافع الحقيقي
الى قسوتي وصراحتي في معاملتي لابنائي ؛ فقد دلتني التجربة
على ان كثيرين ممن يتخذون الارشاد عملهم في الحياة ، إنما
يفعلون ذلك تغطية لما في نفوسهم من رغبات مكبوتة ، لا
يستطيعون إطلاقها على حقيقتها ؛ فقد يكون فيهم الداعر الشبق
الذي يود لو أبيض له جميع نساء الارض ، ولا يرى حتى في
صلاته غير اشباح نساء عرايا ؛ ولكنه لا يملك ان يحقق رغباته
الجنسية كما يشاء ، فيعتمد الى تنفير الناس من الشهوات المحرمة ،

- مذكرات والد -

ويستعين على ذلك بالله وكتبه ورسله . وقد يكون فيهم من يود لو يستطيع ان يسلب كل ذي ثروة جميع امواله ، فيكدس المال الحرام في خزائنه ، ويجرم الآخرين من كل ما يملكون ؛ ولكنه لا يجد سبيلاً الى تحقيق رغبته هذه ، فيضي يعلم الناس القناعة ، وتوخي طاعة الله ومرضاته واليوم الآخر على كل عرض زائل ، وعلى كل جاه وسلطان ومتاع دنيوي .

وهكذا كثيراً ما تكون دعوة الفضيلة والاخلاق الحميدة ستاراً يخفي وراءه المرشدون والاخلاقيون رغباتهم المكبوتة الفاشلة .

فما الذي دفعني اليوم - كما يدفعني دائماً - الى الظهور بمظهر العبوس والصرامة مع اولادي ؛ مع اني ، في الواقع ، لا احب لأحد منهم سوءاً ، ولو اصاب أحد منهم بمكروه لما توانيت لحظة عن ان اجعل حياتي ثمناً لسلامته ونجاته ؛! اتراني - لا شعورياً - من اولئك الذين يسترون مشاعرهم الحقيقية بقناع الغيرة على الاخلاق ؛!

يخيّل الي أن هناك شيئاً بعيداً جداً عن الوراثة - وراثته

الصرامة عن والدي وعن مجرد الرغبة في الإصلاح والتوجيه؛
أو لعل " رغبة التوجيه كانت خالصة مجردة إبان طفولتهم ؛ أما
الآن ، وهم في عنفوان الشباب ، وليس فيهم من هو دون
السادسة عشرة من العمر ، فالامر جد مختلف كما ارى .
ولهذا لا بد من ان اناقش نفسي ، وان اصارحها بما تألمت
وتهرب من معرفته . علي ان اكون صارماً معها مرة ، بعنا
ان كنت صارماً مع اولادي كل المرات .

انا الآن كهل ، تجاوزت الستين من عمري . لقد
خلقت سن الشباب المتفتح ورأيي . والشعر الابيض ينتشر في
الاماكن التي لم يغمرها الصلع بعدي رأسي ، بشكل لا يدع مجالاً
لتفتح الاماني ، وضحك الشباب وصبواته : هذا الشباب الذي
أراه في كل جارة من جوارح ابنائي : اراه في وجوههم النضرة
كبراعم الربيع ، وفي شعر رؤوسهم البراق الذي يفتنون
في تلميعه وتصفيفه ، وفي ملابسهم التي يتأقنون في اختيار
الوانها ، وانواع قمشتها ، وطرائق تفصيلها ؛ واره في ضحكاتهم
الشابة التي يطلقونها من اعماق قلوبهم ، وفي مشيتهم المرحّة
القوية ، وفي قاماتهم المستقيمة المنتصبة ، وفي كل حركة من

حركاتهم . ولكنني اراه - اكثر ما اراه - واشعر به - اكثر
ما اشعر به - حين أسير مع واحد منهم في شارع ، او يضمني
مع واحد منهم مجلس فيه نساء ؛ فأرى عيون الحسان
تطوقهم بالنظرات الحلوة التي يتفتح لها الريع في الصدور ،
ولا ارى منهن نظرة واحدة تقع علي موقع العاطفة المؤلمة
المنعشة ...

أواه ! ... ماذا ؟!

انني لأكاد اهرب من نفسي الآن خجلاً وانا اصل الى
هذا الحد ! .. ولكن ... أليس خجلي هذا اعترافاً صريحاً
بالتهمة الفاتحة شديدها في وجهي ؟! اتراني حقاً اغار من ابنائي
بدافع لا شعوري ، فأستر غيرتي هذه - لا شعورياً ايضاً -
بالصرامة والقسوة ، وبمظاهر الغيرة على الاخلاق والفضيلة ؟!

إنني لم افطن قط الى هذا ، لأنني لم احاول من قبل ان
اناقش نفسي في هذا الموضوع الخطير . والذي يجعلني اتهم نفسي الآن
بهذه التهمة الخطيرة هو ما قرأته صباح اليوم في كراس صغير
كان في جيب ابني فارس ، الذي عاد اخيراً من لندن حيث

يتابع دراسته الجامعية ، لقضاء جزء من عطلة الصيف بيننا .
لقد ابحت لنفسي ان اسطو على جيبه اقلبه وأرى ما فيه — بدافع
الفضول ، أو بدافع الغيرة المكبوتة ، أو بدافع الرغبة في
صيانة الاخلاق والفضيلة . . . لا ادري ! — ولكنني اخذت
الكراس ورحت اقلب صفحاته ، فقرأت في احداها ما يلي :

[دعني اخيراً زميلتي «جانيت» الى رحلة معها الى دبلن
في ارلندة حيث تقيم اسرتها . انها فتاة ارلندية رائعة الجمال ،
وافرة الغنى . لقد رغبت اليّ في مرافقتها لرؤية بلادها ، والتعرف
الى والديها . وما احبّ الدعوة من فتاة جميلة مثلها ! انها
لدعوة لا يقاوم إغراؤها . ولذلك رافقتها بعد انتهاء العام
الدراسي مباشرة ، وقضيت معها اسبوعين من اطيب ما عرفت
من ايام العمر . لقد استقبلني ابواها بحفاوة بالغة إكراماً لها ،
وأذناني بمرافقتها في زياراتها في دبلن وفي انحاء اخرى من
ارلندة . وكانت زياراتنا ممتعة جداً ، وعلى براءتها التي لم تتجاوز
فيها مدى العناق الحلو واللهو البريء . ولما مرّ الاسبوعان ،
شعرت وانا اودعها للعودة الى بلادي ، بأنني لا اضع يدي في
يدها ، وانما اضع فيها قلبي وجوارحي كلها . وأمام والديها عانقتني

وقبلتني قبلة الوداع ؛ فعلت ذلك ببراعة اخوية تامة .
لو فعلت مثل هذا فتاة في بلادي ، لسلقها اللسنة
بالافتراءات الداعرة المجرمة ، ولشوّهت سمعتها مدى الحياة !
وفي صفحة اخرى من الكراس قرأت ايضاً ما يلي :
[تنزهت صباح اليوم في قارب على نهر التيمس مع زميلتي
فيفيان . كانت السماء صافية — وما اقل صفاء السماء في
لندن ! — وكان النهر ساكناً هادئاً ؛ وكان في وجه فيفيان
أجمل ما في السماء وصفحة النهر من جمال وروعة . ولم اكن
أملك نفسي عن تطويقها وتقيلها كلما رأيته فتفتح ثغرها
بضحكة ، وكانت ضحكتها أروع من رنين الاجراس في
الأعياد . وكانت تستسلم الى ذراعي في كل مرة بمرح شهيق
وحيوية .

آه ! لو رأي أبي إذ ذاك للقيت من خشونته وقسوة
تأنيبه ما لا يصبر عليه حتى الصبر نفسه ! إنه لا يريد أن
يدرك أننا ههنا شبان نمارس الحياة من دون رياء ، أو كبت
قاتل ، كما نفعل في بلادنا ، وكما تفرض علينا تقاليد بيئتنا
الظالمة !]

وصفحات أخرى من هذا النوع قرأتها في الكراسة التي سرقتها من جيب فارس. فشعرتُ بالدم يغلي في عروقي. لقد خيل إلي أن الفضيلة انتحرت في نفس فارس، وأن الأخلاق كلها قد تدنست بالوحل. وفي ثورة نفسية محمومة رحت أمرق الكراس قطعاً صغيرة، ثم دعوت فارس وشفتاي ترقصان غضباً، فلما وقف أمامي صحتُ به عابساً غاضباً :

— إذن أنا أرسل اليك النقود للدراسة، وانت تنفقها على جانبتي في دبلن، وعلى فيفيان في لندن، وعلى غيرها من صواحبك؟ ! ألهذا أرسلتُك الى الجامعة؟ أهذه هي الأخلاق التي حرصتُ على ان القينك اياها طول عمرك؟ ! أهذه نتيجة تعبي وسهر لي الليالي : أنا أتعبُ هنا في تدبير المال لدراستك، وأنت تنفقه بسخاء وأريحية على المومسات في الغرب؟

فقاطعتني فارس محتدّاً :

— ليست جانبتي وفيفيان من المومسات يا ابني؟ انهما من زميلاتي في الجامعة، وعلاقتي بهما وبغيرهما ممن أسخطتك رؤية أسمائهن في هذه الكراسة الممزقة هي علاقة زمالة، وصداقة بريئة !

— مذكرات والد —

فصحتُ به غاضباً :

— إخرس ! علاقة بريئة ! ؟ وهذا الهزال البادي على جسمك ، أليس من اثر الافراط في الدعارة مع المومسات ؟ !
أهذه نتيجة تربيتي لك ؟ !

ومضيتُ في ثورتي الصاخبة أسمعهُ من الكلام أعنفهُ
وأشدُّه إيلا ما ، حتى نفذ صبرهُ ، فقال لي ما قاله ، ثم خرج
من امامي غاضباً ، وصفق الباب خلفه صفقة حائقة شديدة .

اتراني حقاً ثُرتُ عليه هذه الثورة ، واسمعتُهُ ما اسمعتُهُ
من الاهانة والكلام الجارح لأنه انفق المال الذي كنتُ ارسلهُ
اليه على معاشرة المومسات ؟ ! وهل كنتُ على حقٍّ حين
رमितُ أولئك الفتيات بهذه الصفة القذرة ؟ !

اكلُ فتاة تمشي مع فتى وتعانقه او تأذن له بتقبيلها هي
مومسة حقاً ؟ !

يخيّل إليّ اني لم أقبل الصحيح حين ثُرتُ على ابني
واتّهمته ، واتّهمتُ معه فتيات بريئات من زميلاته . ولو عدتُ
في العمر الى مثل سنّه اليوم لما فعلتُ إلا ما يفعله هو الآن ؛

ولكنني لن اعود الى مثل سنّته ، ولن يغطّي الشعر البراق
المصفّف هذه الطريق الصحراوية العريضة التي فتحتها
السنون في رأسي ، والشيب الذي انتشر في بقايا الشعر على
الجوانب يزداد كل يوم وفرة وامتدادا . إن الأيام تمضي بي
قُدُماً الى حيث لا يعيش من النساء غير العجاف القاحلات؛ أما
هو فان الأعوام الثمانية عشر تجمع حوله باقات العطر والزهر،
وتفرش دروبه بالثغور الضواحك، والاذرع البضة، والحدود
النضرة . إن الحياة المقبلة عليه الآن ليس من حقي ان انقصها
لأنها مُدبرة عني ، ولأنني في شبابي لم استطع ان اجد الجو
الذي تنطلق فيه نفسي على سجيّتها مثله ، واعبّر عن نوازعي
وميوّلي بشكل صريح كما يعبّر هو الآن ، لأن المجتمع الذي
كنتُ اعيش فيه كان قاسياً مجرماً، يفرض من التقاليد والقيود
الأخلاقية ما لا يطيقه حتى الملائكة ، فكنتُ لذلك اعيش على
الكبت والحرمان، واحسب في الكبت والحرمان كل الفضيلة!
اكاد اسمع كل جارحة فيّ تتّهمني ، بملء القسوة ، بأن
كبتني وحرمانني ايام الشباب، وإدبار الحياة عني اليوم ، وإقبالها
بكل مفاتها ومباهجها على اولادي ، هي السبب في عنفي وقسوتي

— مذكرات والد —

على هؤلاء الأبناء الشبان ، فكأنني — لا شعورياً — احاول ان انتقم من الحياة بواسطتهم ، واودّ ان لا يلاقوا من حياتهم غير ما لقيتُ انا من الكبت والحرمان الدائمين !

لقد كشف لي ابي فارس اليوم عن نفسي ، واراني إياها على حقيقتها بمذكراته ! فما كانت ثورتي عليه ، وتمزيقي لمذكراته ، غيرة على الأخلاق والآداب ، ولا حرصاً على المال الذي ارسله اليه ، ولا كانت قسوتي شيئاً مما ورثته عن والدي ومما طبعته البيئة في نفسي .

إن الاعتراف بالحقيقة صعب جداً حينما تكون جارحة قاسية بهذا الشكل الذي اتمثله الآن . . . ولكن الحقيقة لا تكون إلا الحقيقة نفسها ، مهما حاولنا ان نغوه على انفسنا ، وعلى الناس ، بالباسها غير ثيابها ! . . .



[لقد كنتُ اكره ان ارى
النساء يدخلن الكنيسة
للصلاة ؛ إن الشيطان يدخل
الى الكنيسة في ثياب المرأة !!]

البرق

كنيسة القرية الصغيرة في عيد بهيج ؛ منذ الصباح
الباكر يتردد رنين جرسها العتيق في الفضاء ، وتضحك
جدرانها المقصورة بالطين الممزوج بالطين ، والمبيضة بنقيع
التراب الابيض بأيدي نسوة القرية ؛ وتضحك كذلك الصور
المعلقة على الجدران لتمثل مراحل درب الصليب الاربع
عشرة ؛ وسقف الكنيسة المصنوع من عيدان القصب والدفلى
وأشجار الحور ، تعلوها طبقة سمكة من الطين ، تزداد سمكاً
سنة بعد أخرى بأيدي نساء القرية ايضاً ؛ والميسل الخشي
الصغير بما عليه من الشموع المضاء ، وطاقات الزهر التي
جمعها الصبيان من مروج القرية وبساتينها ؛ وصندوق القربان
المتربع في وسطه ، مغطى بقماش أصفر مقصب الاطراف ؛
كلها تضحك مغبطة .

الترانيم تتردد في تلك الكنيسة الصغيرة منذ الصباح :
من الخوري الذي يقيم الذبيحة الالهية المقدسة ؛ ومن جوقة
المرتلين الصغار المتحللين في مقدمة الكنيسة حول الارغن

الصغير القديم ، وعازفه القروي الذي يعزف عليه ايام الآحاد والأعياد منذ ان جيء به الى الكنيسة ، قبل عشر سنوات ، دون ان يدرس شيئاً عن الموسيقى والنوت ؛ ومن الجمهور الصغير الذي يملأ المقاعد الخشبية وجوانب الكنيسة كلها . الجميع يشتركون في الصلاة وفي الترتيل ، ويختلط مع اصواتهم الصادحة بين الفينة والفينة رنين الجرس الكبير المعلق على جرسية خشبية خارج باب الكنيسة ، ليشاركهم حينما يرتلون : « المجد لله في العلاء ، وعلى الارض السلام » او حينما يصدحون : « نؤمن بالله واحداً ، أب ضابط لكل ، خالق السماء والارض » . وفي يد الطفل الذي الى يمين الهيكل ، خلف الجوري ، يرتن من حين الى آخر جرس آخر صغير رنيناً حاداً طويلاً ، يختلط مع اصوات المرتلين وأنغام الارغن .

كان ذلك اول عيد اشهده في قريتي منذ سنوات ، حين غادرت القرية لأدخل ديراً للرهبان لكي أصبح كاهناً . وكان عيداً جميلاً ، شعرت فيه - كما لم أشعر من قبل - بجمال الاشتراك مع الناس البسطاء في صلاة العيد ، وفي التراتيل التي يصدحون بها من أعماق قلوبهم ، وبجلء حناجرهم في صلاة

العيد. واشتركت معهم بقلبي وحنجرتي، فقد أحسست ان صلاة العيد في القرية الصغيرة البسيطة ، وتراتيل العيد من أهلها السدج الطيبين ، هي عيد الأعياد ، وهي الصلاة الصادقة التي يفتح قلب الله لاستقبالها برضى وأبوّة حانية .

وخلف الشموع التي تتراقص اضواء فتائلها الصغيرة الصفراء على الهيكل ، كانت تتدلى على الحائط صورة جميلة كبيرة للمسيح الطفل : يداعب يديه الصغيرتين حَمَلًا ابيض ودياً راقداً امامه ؛ على هذه الصورة الجميلة تسمرت عيناى لحظة لا أدري كم طالت ، بينما كنت اشترك مع المرتلين في الترتيل ؛ والشمس في خارج الكنيسة تضحك للمروج والبساتين .

هذه الصورة كانت لديّ في الدير صورة مثلها صغيرة وجميلة جداً ؛ وكنت أحب الصور الدينية واحتفظ لديّ بكثير منها ، ولكن هذه الصورة كانت افضلها وآثرها عندي . كنت أضعها في كتاب الصلاة حيناً ، وفي كتب الدراسة احياناً اخرى : في كتاب اللغة اليونانية ، او اللغة اللاتينية، أو اللغة الفرنسية ، او غيرها ؛ ثم سرقتها زميل لي في الصف لينغيطني ، وحينما حاولت استردادها منه مزقها اربع

قطع ، وهرّب الى الملعب وهو يضحك متشفياً ، فتناولت قطعها الأربع عن الارض ، وجعلت اجمعها واقبلها وانا ابكي بدموع حارة .

الدير ... زملائي هناك ... الرؤساء والمعلمون ...
وانا طفل قروي في مدينة كبيرة ، وفي دير داخليّ ذي نظام صارم رتيب ... والصلوات الكثيرة في الصباح الباكر ، وفي الظهر ، وفي العصر ، وفي المساء ، جميع ايام الاسبوع ... على الأرض نهىء انفسنا ، منذ الطفولة ، لرحلة الابدية المرتقبة في السماء !.. هدايانا صور دينية وكتب صلوات ، ومسابح وصلبان وايقونات قديسين ؛ حتى اغانينا كلها ، في المدرسة ، وفي الرحلات الطويلة والقصيرة ، كلها ترانيم دينية ... ومطالعنا سيّر القديسين . وفصول من العهد القديم والعهد الجديد ... لا يخرج عن هذا النطاق سوى كتب الدراسة ؛ ولو أمكن ان يكون الحساب والجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء والجغرافيا والتاريخ كلها صلوات او سير قديسين ، وان تكون اللغات العربية واليونانية واللاتينية والاطالية والفرنسية جميعها تراويل او تأملات روحية ، لفعلوا ... ولكانت علومنا

كلها إعداداً روحياً للسماء ، لا إعداداً عقلياً وثقافياً للارض
وللحياة . . .

أربع سنوات في جو الصلاة والاعداد الديني ؛ لم أكن
أتمنى إلا أن اصبح في احد الأيام شهيداً لأجل الدين ،
فأصير بعد ذلك قديساً ، كهؤلاء القديسين العديدين الذين
أقرأ سيرهم في الكتب التي تزرعها مكتبة الدير الكبيرة ؛
وتوزع على البيوت واطفال المدارس صوري وايقوناتى
المقدسة ، كهذه الصور والايقونات التي يهديها الينا رؤساؤنا
ومعلمونا الكهنة في الدير ؛ ويختارني بعض الناس شفيعاً لهم
عند الله ، كما نختار نحن شفعاؤنا من القديسين فنسبدهم لهم ،
ونكرم صورهم وايقوناتهم ، ونستجير بهم لينالوا لنا رضى الله
وغفرانه ، وليهتئوا لنا في الآخرة مقاماً في فردوسه الأبدي
السعيد !

لم اكن اكره خلال تلك السنوات الاربع سوى شيء
واحد : المرأة كانت الشيطان الذى يهيب النفس للخطيئة !
ولم اكن أدرك معنى الخطيئة ، ولكنني كنت اسمعها كثيراً ،
واسمع انها تغلق أبواب السماء في وجه مرتكبيها !

إذا خرجنا للنزهة ورأيت النساء يسرن في الشوارع
بزيتتهنّ وملابسهنّ الجميلة ، كالفراشات المرحّة الملوّنة ، كنت
أشبح بوجهي خجلاً ، و . . . اشمزأاً . . . ربما خوفاً من
الخطيئة ! حية حواء كانت تتراءى لي ملتفة على جسد كل
حواء ، كما هي ملتفة على شجرة التفاح أمام حواء الاولى في
الصورة التي رأيته في كتاب العهد القديم ! و كنتُ أتساءل
ازاء تلك الصورة : ترى أيّها الحيّة ؟ أهذه التي تلتفّ على
الشجرة ، أم الآخري التي تستمع الى إغرائها لتصبح إلهاً
بدل الله ؟ !

لعلّ لشعوري الاسود نحو المرأة سبباً آخر الى جانب
التربية الدينية في الدير . . . تربية القرية ! وهي لا تقلّ عنها
صرامة . . . وآدابٌ « وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتى » . . .
كان لها في نفسي الطفلة انطباعاتها العميقة . وجاءت حياة الدير
القاسية ، والتربية الدينية الصارمة ، والعيش تحت رقابة الكهنة
والرهبان ، لتزيد من تلبّد الحسّ والادراك لديّ ؛ حتى لقد
كنتُ أكره أن ارى النساء يدخلن الكنيسة للصلاة . . .
إن الشيطان يدخل الى الكنيسة في ثياب المرأة ، ولا سيما التي

تضع المساحيق والأصباغ ، وترتدي الثياب الشفافة القصيرة !
هنا في القرية يختلف الامر ، فما يدخل الشيطان الى
الكنيسة ، لان ثياب القرويات ثقيلة على جسده

لكن المرأة كانت ايضاً هناك ؛ ففي دير قريب للراهبات
كانت فتاة من قريباتي طالبة داخلية ، تهسىء نفسها لتصبح في
أحد الايام راهبة ، كما سأصبح أنا راهباً وكنت ازورها
أحياناً بحكم القرابة ، ولم يخامرني قط سوى هذا المعنى من
قرابة الدم .

وأردتُ مرة ان اهجّر الدير كانت الحياة فيه
صارمة ، وكنت أريد ان اكون حُرّاً واستأذنتُ
الرئيس في ان اذهب لاودّع قريتي قبل مغادرة الدير .
واستقبلتني في ردهة دير الراهبات ومعها راهبة لقد
بكت كثيراً حينما اخبرتها بعزمي على الهرب من الحبس ،
ونزلت دموعها في قلبي حارّة محرقة . فبكيت معها كثيراً ،
حتى ان الراهبة التي كانت ترافقها لم تستطع البقاء معنا ،
فتركتنا وحيدتين ، ومضت هي ايضاً تكفكف دموعها الى
غرفة اخرى تأثراً من موقفنا .

— استغراق —

وقالت قريتي حينما اصبحتنا وحيدين :
كنت احب ان تصبح كاهناً وأصبح أنا خادمة لك...
عد الى الدير ، وحاول ان تحقق أمنيتي :
ولكنني لم اقبل طلبها ...

ومن بين الدموع المنهمرة على خديها نظرت إلي وقالت
بنبرات جادة جازمة :

اذا تركت الدير فسأترك انا ايضاً ديري هذا وأتبعك
لاقترب بك ! ...

تهديد امرأة ! ..

الراهبة التي كانت، تحولت الى لبوءة تزجر ! وزجرتها
ترعيني !

تتبعني لتقترب بي ؟ ! كلا ! هذا لا يمكن ! .. إنه
مصيبة لا قبل لي بها !

سأعود الى الدير ، وسأبقى فيه الى ماشاء الله !

ونفضت من مكاني ، ومددت اليها يدي مودعاً دون
دموع ، فقد نشف تهديدها الدموع في عيني . وقلت وأنا
اسحب يدي من يدها بسرعة :

اطمئنني ! انا عائد الى الدير، ولن اغادره !
ولكنني عدتُ فغادرته بعد عام من ذلك اللقاء ، ولم
أودعها او اخبرها بعزمي هذه المرة !

لم تكن حواء في نظري حَمَلاً ايضاً وديعاً ، كالحمل
الراقد امام المسيح الطفل في هذه الصورة المتدلية على الحائط
خلف الهيكل ؛ الصورة التي أحببها وأفضلها على جميع الصور
الآخري .

أترى سترافقني نظرتي هذه مدى الحياة ؟ ! إن الناس
الذين اعيش بينهم الآن خارج الدير يقولون غير هذا . . المرأة
مصدر السعادة ؛ المرأة منبع الجمال والحب ؛ المرأة عنصر الخير
واللذة في الحياة ؛ الحياة من دونها لا خير فيها ولا جمال ولا
لذة !

أأنا كنت اعمى ، أم الناس جميعهم عميان ؟ !
الواحد يخطيء في رأيه ، أمّا ما تتفق عليه الجماعة فحق
لو كان خطأ ، لا بد ان يكون صواباً ! . .

ستعيد الحياة صحة البصر الى عيني ، وصحة الادراك الى
عقلي ؛ فقد بدأت ارى الدنيا غير ما كنت اراها في السنوات

الأربع الماضية . كل شيء جديد فيها ، وكل شيء جميل ، حتى
سقف الكنيسة القروية المصنوع من خشب الحور والقصب
والدفل ؛ وحتى جدرانها المقصورة بالتراب والتبن ، والمبيضة
بنقيع التراب الأبيض بأيدي نساء القرية ؛ وحتى الهيكل
الخشبي الصغير الذي يقف الخوري أمامه للصلاة ؛ والازهار
البرية التي جمعها الصبيان من مروج القرية ليزينوا بها الهيكل !
شيء واحد كان من قبل جميلاً في عينيّ وحبیباً الى
نفسي ؛ وهاهو الآن معلق أمامي على جدار الكنيسة فوق
الهيكل ، وما يزال جميلاً في عينيّ وحبیباً الى نفسي كما كان من
قبل : صورة المسيح الطفل والحروف الأبيض الصغير الراقدة
أمامه بجلء البراعة والوداعة !



[... لقد زارهم «سانتا كلوز»
في الليلة الماضية ، لأول مرة
في حياتهم ، تماماً كما يزور
اولاد السعداء ...]

قوله
يحييه

.. ماما! لماذا لا تقيم جارتنا «أم سعيد» شجرة العيد في بيتها
كما نفعل نحن؟

- إنهم فقراء يا بني، وشجرة العيد تحتاج الى نفقات
لا تيسر لأم سعيد من عملها.

- وأولادها، يا ماما، لا يلبسون مثل ثيابنا الجديدة في
العيد، ولا ينفقون القروش لشراء الحلوى، ولا يجدون
شيئاً من الهدايا والدمى التي نجدها نحن يوم العيد.

- قلت لك إنهم فقراء، لا يتاح لهم ما نستطيع نحن ان
نتمتع به في العيد وفي غير العيد.

- ولماذا كانوا هم فقراء؟ ونحن أغنياء؟

- لا تسأل اسئلة كثيرة، يا نديم. متى كبرت فستعرف
اشياء كثيرة لا تستطيع ان تعرفها الآن.

- ماما! ارجوك ان تقولي لي، ألا يزورهم «ساتا كلوز»

ليلة العيد كما يزورنا؟

- إن ساتا كلوز لا يعرف طريق الخيام والاكواخ

- قلوب طيبة -

والغاور ؛ ولذلك يظل اصحابها محرومين من بهجة الأعياد
وهداياها .

- ولماذا لا ندله نحن على خيمة جارتنا أم سعيد عندما
يأتي ليزورنا في منتصف الليل ؛ إن اولادها صغار مثلنا ؛
ولكنهم لا يلعبون مثلنا بالدمى الجميلة يوم العيد !

- اوف ! لقد اخجرتني بأسئلتك ! قلت لك انهم فقراء ،
ولا يتاح لهم ان يجدوا المال لشراء الهدايا !

- ولماذا ليس لهم اب مثلنا ليتاح لهم هدايا العيد ؟
- أبوهم مات ولم يترك لهم مالا يعيشون به ؛ ولا إرثاً
يستثمرونه .

- ومن اين يجدون ثمن الطعام إن لم يكن لديهم مال ؟
إن امهم تشتغل طول النهار ، وتشتري لهم الطعام بما
تكسبه كل يوم من عملها المرهق . الا تراها تأتي لتغسل لنا
التياب مرتين كل اسبوع ؟ وهي تفعل مثل ذلك في بيوت
اخرى كل يوم .

- ولماذا مات ابوهم يا ماما ؟

- ما اكثر اسئلتك ! لقد مات مريضاً !

— قلوب طيبة —

— ولم لم يذهب الى المستشفى ليعالج من مرضه ؟
— لقد كان فقيراً! ولم يكن يستطيع ان يدفع اجرة
الطبيب والمستشفى !

— ماما !

— ماذا! ألم تشبع بعد من الاسئلة ؟
— هل تأذنين لي بأن اظل مستيقظاً هذه الليلة حتى يحىء
ساتنا كلوز ؟

— ماذا تريد من ساتنا كلوز ؟

— اريد ان ادله على خيمة ام سعيد !
— إن ساتنا كلوز لا يذهب معك، لأن لديه عملاً كثيراً
هذه الليلة .

— سأرجوه ان يرافقني . . . او سأدله على خيمتها فقط
فيذهب إليها وحده . . . إن اطفال ام سعيد في حاجة الى
الهدايا ليفرحوا بالعيد مثلنا !

— سيغضب ابوك اذا ظلمت ساهراً الى منتصف الليل ،
فلا تحاول ان تفعل ذلك .

— ارجوك يا ماما! إن انت طلبت ذلك منه فسيسمع منك.

— قلوب طيبة —

— قلت لك إنك لن تسهر حتى يحىء سائتا كلوز . إنه لا يأتي والاطفال ساهرون ، بل ينتظر الى ان يناموا ، لكي يضع لهم الهدايا خلصة ، فهو لا يحب ان يراه الاطفال .

— ولكن خيمة ام سعيد غير بعيدة ، يا ماما ؛ واطفالها مساكين لا يجدون من يحمل اليهم هدية ! إنهم اطفال مثلنا ، ولكنهم لا يلعبون ولا يفرحون كما نفعل نحن !

— كفى ، كفى !

— ماما ! عندي فكرة . . .

— بماذا يفكر الفيلسوف العنيد ؟ هات ما عندك !

— إن الهدايا التي احضرتها لي - انتِ وابي - في عيد ميلادي ما تزال جديدة كلها . . .

— هه ؟ . . . وماذا بعد ؟

— وسيحضر لي سائتا كلوز هذه الليلة هدايا اخرى جديدة ؛ اليس كذلك ؟ !

— هه . . . ؟

— ولدى اخوتي دُمى اخرى لا يحتاجون اليها . .

— هه ! . . ثم ماذا ؟

- قلوب طيبة -

- وسيكون لديهم في الصباح هدايا اخرى جديدة
مما سيحمله اليهم سانتا كلوز الليلة ...

- عجل! قل ما تريد !

- لماذا لا نحمل الهدايا التي لدينا الآن الى اطفال جارتنا
ام سعيد ، ونكتفي بهدايا سانتا كلوز الجديدة ؟

- ! ! ؟

- انهم سيفرحون بها كثيراً ، وسيكون لهم عيد مثل
عيدنا !

- ههه . . . فكرة !

- ولن يحتاجوا الى هدايا سانتا كلوز ، - ما دام كما
تقولين - قاسياً الى حدّ انه يترك للمحرومين حرمانهم ، ويكتفي
بزيارة الأغنياء وحدهم !

- لقد بدأ حديثك يهمني ! أتعي حقاً ما تقول ؟

- نعم يا ماما ؛ سأعطي ما لديّ الآن من دُمى وهدايا
لأطفال جارتنا الفقراء ، مادام ليس لهم اب يُدخل الفرح

— قلوب طيبة —

الى خيمتهم في العيد .

— ما أطيب قلبك يا نديم ! انت احسن من الكبار !

— هل توافقين يا ماما ؟

— هات خديك اقبلها !

— انت عظمة يا ماما ! ستكونين انتِ سانتا كلوز

لاطفال ام سعيد ، وسيفرحون كثيراً بهذا العيد لأول مرة .

— بل ستكون انتِ سانتا كلوز . ستحمل انت الهدايا

اليهم في منتصف الليل في سلة كاتي يحملها سانتا كلوز وهو يطوف بأولاد السعداء ليوزع عليهم الهدايا .

— ولكنك قلتِ اني لن اسهر الى منتصف الليل ؟ !

— بل ستسهر الآن ، وسأمضي معك الى خيمة ام سعيد

ومعنا الهدايا .

— واي ، ألا يغضب اذا ظلمتُ ساهراً ؟ !

— ابوك سيعطينا نقوداً لنقدمها الى ام سعيد ، لتشتري

— قلوب طيبة —

لهم طعاماً حسناً ليوم العيد .

— ما أعظمك يا ماما !

— وسنحمل الى اطفال ام سعيد مع الهدايا ثياباً جديدة

يلبسونها للعيد .

— عظيم ! عظيم جداً يا ماما ! . ثم هناك شيء آخر !

— ماذا ؟

— ألا ندعو ام سعيد واطفالها ليتناولوا الغداء معنا غداً ؟

— إيه ! إن كان هذا يرضيك !

— موافقة ؟ !

— وسيوافق ابوك ايضاً !

— انما احسن ابوين في الدنيا يا ماما !

— وانت احسن طفل في الدنيا يا نديم ! دعني اقبلك

مرة اخرى .

— ودعيني اقبلك انا ايضاً يا ماما ؟



— قلوب طيبة —

وعلى مائدة الغداء في اليوم التالي كانت ام سعيد
تجلس الى جانب ام نديم ، واولادهما الى جانب اولاد ام نديم،
بثياب جديدة ، وقد شملتهم جميعاً فرحة العيد .

لقد زارهم سانتا كلوز في الليلة الماضية، لأول مرة في
حياتهم ، تماماً كما يزور اولاد السعداء . . .



[حينما كنتُ في الدرجة
 العاشرة ، في بلدي هذا ،
 كنتُ احسدُ الذين وصلوا
 الى السادسة وما فوقها ، لأنهم
 أصبحوا يدعون بلقب (بك) ،
 ولأن هذا اللقب يشير تقدير
 الناس وإكبارهم في هذا البلد .
 اما الآن فقد زهدت نفسي
 بكل لقب ، لأنني تعلمتُ في
 الغربة ان ما يشير الاعجاب
 والاكبار هو العمل الكبير
 النافع ، والخلق الرفيع القويم ،
 وليس اللقب والمنصب !]

تمت في دار ابن
 ٩٦

بدأ منصور العمل في خدمة الحكومة حين كان في السابعة عشرة من عمره ، وكان قد ترك المدرسة بعد أن أنهى الصف « الثامن » ، لأنه لم يكن في عمان حينذاك صف أعلى منه فيلتحق به ، ولم يكن في وسع والده أن يرسله الى مدينة (السلط) ، ليتابع دراسته في المدرسة الثانوية الوحيدة التي كانت في الاردن حينذاك ، ويتخرج من الصف « العاشر » فيها ؛ فانقطع عن الدراسة وهو يشعر بأنه قد وصل الى كل ما في بلده من علم وثقافة. ونادرون جداً اولئك الذين كانوا يصلون في « العلم » الى الصف العاشر في بلده في ذلك الحين ، وأندر منهم جداً من كانوا يعرفون بعد ذاك طريق الجامعة .

ورمى منصور بعينه الى مكاتب الحكومة ، حيث يعمل اناس يعرفهم ابوه ، ويذكر أسماءهم أمامه ، مثل حليم بك ، وعبد الجواد بك ، وناصر الدين بك ، وعارف بك ، وكثير غيرهم ممن وصلوا الى الدرجة السادسة فنالوا بذلك لقب « بك » - كما كان الأمر في ذلك العهد - وآخرون ممن لا يزالون

يتحسّنون الفرص ، أو ينتظرون دورهم في الوصول الى درجة البكوية ، فلا يخاطبهم المراجعون وأصحاب المصالح إلا بقولهم: « يا بك » « او » يا سيدي ! » .

وعين منصور في الحكومة بعد أن طاف أبوه بكثير من كبار الموظفين ، واستعان على أصحاب السلطان بالشفاعات والوسائط الشخصية ذات النفوذ والوجاهة ، فدخل موظفاً في الدرجة العاشرة ، وكان عمله حفظ الأضياع ، وتقديمها الى الموظفين الآخرين عند الطلب .

ومنذ أن أخذ مكانه من مكاتب الدائرة ، وصار له كرسي وطاولة ، بدأ يشعر بأنه إنسان له قيمته ، وبأن في البلد كثيرين ممن يرجونه ويتشفعون به للوصول الى قضاء مصالحهم ، وهم لذلك لا يدعونه إلا « منصور أفندي » ؛ و« منصور أفندي » خطوة أولى قبل أن يصبح اسمه « منصور بك » ؛ وكان كلما عاد الى منزله يستمع الى الآمال التي يعلقها عليه أبوه وأمه ، ويمنّيان به في مستقبل الأيام ، فيكاد يخترم الأيام والسنين بسرعة ليرى نفسه موظفاً كبيراً ، ومن حوله الموظفون الصغار والأذنة ، يأمر هذا ، ويصيح بذاك ؛

فيتنفخ صدره بالآمال العريضة .

وفي العهد الذي التحق به منصور بالوظيفة الحكومية ، كان الموظف شخصية عظيمة القيمة ، يحسدها الآخرون وينظرون اليها بمنظار مهوِّلة ، تضخم الأشياء أكثر من حقيقتها كثيراً ؛ فالتعلمون في البلد قلّة ، وحالة الأهلين المالية لا تساعد على التفكير في طلب العلم الى أبعد من المدارس المحدودة الموجودة في البلد . ولذلك لا غرابة في أن يرى منصور نفسه واحداً من القلّة المثقّفة في البلد ، ومن الشخصيات المرجوّة لدى ذوي المصالح من المواطنين .

حتى أبوه ، وقد نزع من قريته الى المدينة بعد أن استنزف المرابون كل ما كان يملكه في القرية من أملاك ، وقنع من دنياه بـدكان صغير في أحد الأحياء الفقيرة مبنيّ من اللبن الطيني ، وبمنزل مستأجر ذي غرفة واحدة مبنية كذلك من اللبن ؛ حتى أبوه هذا صار يدعوّه « منصور بك » تيمناً بما سيصل اليه في المستقبل القريب أو البعيد . وكان هذا اللقب يطنّ في أذنيه طنيناً مدوّياً ، ويمنّيه بمنزلة رفيعة سيحتلّها في بلده .

ولكنه يعلم ، ويعلم كذلك أبوه الذي لم يتلقَّ من العلم شيئاً في قرينه ، أن ابواب الدرجات لا تفتح بسهولة ، لأن مفاتيحها المسحورة بأيدي أرباب السلطة ، ولهُؤلاء آراؤهم واذواقهم في منح الدرجات والترقيات ، وقلَّ أن تكون الكفاءة والمقدرة ومدة الخدمة من المؤهلات الحقيقية للترقية.

وكان منصور يعلم أن مؤهلاته العلمية وحدها ليست بالشيء الذي يكفي لتدرّجِه في سلّم الترقيات. ولكنه يعرف كذلك الكثيرين من الموظفين الذين لا يزيدون عليه ثقافة ، يقفزون سلّم الدرجات بسرعة ، لأنهم يعرفون كيف يفوزون برضى رؤسائهم وذوي الشأن في دوائرهم ؛ فهم مع كل مقيم منهم : وزيراً كان أم مديراً ؛ انهم يتملّقون الجميع ليفوزوا برضى الجميع ؛ وليس اسهل عليهم من ان يحملوا على المسؤول الراحل ، ليظفروا برضى المسؤول القادم ، حتى اذا حدث ان عاد الأول الى مكانه هُرعوا لهنتته وتقديم اقصى مظاهر التعظيم والتمجيد والاخلاص له .

امور كان يمارسها كل من عرفهم من الموظفين في كل دائرة ، وكان الكثيرون مما يمارسون هذا النفاق السافر

يفوزون برضى المقيمين والراجلين من المسؤولين ، ويسرعون لذلك في ارتقاء سلم الدرجات قفزا ، سنتان او ثلاث سنوات على الاكثر في كل درجة ، او قد يضرب الحظ ضربته فلا يزيد بقاء الواحد منهم في درجته اكثر من سنة واحدة ، بينما يقعد الحظ الكابي بأصحابه ، فلا يتخلّصون من الدرجة الواحدة في اقل من خمسة عشر عاماً .

هذه كانت سنة الناس في الوظيفة : « الشاطر بشطارته ! » و « اطعم السن بتستحي العين ! » و « الي ماله واسطه ما بعيش ! » ؛ وكان جديراً بمنصور ان يسير على هذه « القواعد الذهبية » ليصل الى غايته بسرعة ، لو كان يجيد هذا الضرب من التمثيل والتهريج . ولكنه ليس مثل الآخرين ... إنه شديد الحياء ، فلا يعرف كيف يقف على الأعتاب ، ويعدّل ربطة العنق ، ويسوّي ازرار الجاكيت كيّا استدعاه رئيس ، او مساعد رئيس ، او موظف ذو مكانة في الدائرة ؛ ولا يعرف كيف يجب على كل كلمة يلقيها اليه من يستدعيه بانحناءة من راسه ، وبعبارات الخضوع والطاعة المألوفة : « امرك سيدي ! حاضر سيدي ! على راسي

سيدي ! بكل احترام يا مولاي ! »

لقد كانت هذه هي الكليشيات التقليدية التي يستخدمها زملاؤه في دوائر الدولة لارضاء رؤسائهم ، ثم هي في الوقت نفسه العبارات التي تدلّ على مدى التهذيب واطيب الأخلاق ! وهو جدير بأن يفعل كما يفعل الآخرون ، ويقول كما يقولون ، والآن فان مكانه سيظلّ في اسفل السلم ، بينما يسبقه الآخرون قفزاً إلى اعلاه . ولكن هل من الكرامة في شيء ان يضطرّ المرء الى التملّق والنفاق ، وتقييل الايدي والاقدام لاجل الترقية وتحسين المركز ؟

وراحت الايام تتعاقب بطيئة ثقيلة ، تتبعها الشهور والسنون ، حتى قضى منصور في الدرجة العاشرة عشر سنوات كاملة ، لم يتغير فيها نوع عمله ، ولم يصبه فيها حظ الترفيع ، بينما اصاب هذا الحظ عدداً من زملائه واصدقائه ، في دائرته نفسها وفي دوائر اخرى ، فوصل بعضهم ، ممن لم تزد ثقافتهم المدرسية على ثقافته ، الى الدرجة الثامنة ، وبعضهم اصبحوا يقفون على عتبة السابعة ، لانهم كانوا اقدر منه على النفاق والتلون ، وعلى الوصول الى ذوي النفوذ في البلد ممن لا تُردّ

— منصور بك —

طلباتهم عند الرؤساء وذوي الشأن .

واخذ منصور يشعر بكثير من الهوان حينما يعود الى البيت ، ويرى نظرات الخيبة في عيني والده ، ومرارة الانكسار في حديث امه . ولم يعد يسمع من ابيه اسمه مقروناً بلقب (بك) بعد مضي هذه السنين العديدة الثقيلة والعاشرة ما تزال عاشرة ، لم تتزحزح عن مكانها .

وكان يزيد في هوانه ما كان يسمعه من مفاخرة زملائه واصدقائه بالدرجات التي رفعوا إليها ، والوسائل التي استخدموها للوصول الى هذه الدرجات . إنهم يقفزون قفراً نحو درجة البكوية ، اما هو فما يزال بينه وبينها ثلاث درجات ، فاذا حسب لكل درجة عشر سنوات كالتى قضاهما في العاشرة ، فانه لن يصل الى « البكوية » الا بعد ثلاثين سنة اخرى ، غير السنوات العشر التى مضت في العاشرة ؛ وهكذا لن يدعوهم المراجعون باسم (منصور بك) إلا بعد ان يتجاوز السابعة والخمسين من العمر ، وربما بعد ان يُحَال على المعاش ؛ وبدأ الصراع في نفسه عنيفاً جداً . لقد خاب امل ابويه به ، وخاب امله بنفسه . ولكنه لا يستطيع ان يتوسل

بالوسائل التي يلجأ إليها الآخرون للترقية ، فما يكاد الواحد منهم يقضي سنة او سنتين او اكثر قليلاً في الدرجة ، حتى يقفز الى ما فوقها بشفاعة وسيط ، او نفوذ كبير ، او بتعلق الرئيس الاصغر والرئيس الاكبر ؛ وهو يعرف ان البعض منهم كانوا يبذلون الرشوة للوسطاء وغير الوسطاء ، فيشترون بها الدرجات .

وماذا يفعل هو ؟ يرشو « وسطاء الخير » ، وبعض الرؤساء الذين لا يتورعون عن قبول الرشوة ؟ ام يتشفع بذوي النفوذ ؟ ام ينافق ويتلون ؟

إن في داخله لصوتا عنيفاً يهتف به : لا تفعل ! كرامتك فوق الدرجات ! ولتذهب البكوية الى الجحيم ! إن رضاك عن كرامتك وعزة نفسك افضل من كل ذلك !

ويصغي منصور الى ذلك الصوت الداخلي فيتخاذل . إنه ليؤمن حقاً بأن كرامته فوق الدرجات وفوق البكوية ، ولكن أبويه لا يؤمنان بذلك . وزملاؤه الذين سبقوه في الدرجات يعيرونه ويشتمون به ، ويكاد يرى في كل كلمة من كلامهم ، وكل اشارة من اشاراتهم معنى السخرية والمهزء

والشماة... » لو كان شاطر ما بعده لليوم بدرجته !...
اي هي الدرجات بتيجي تركض لوحدها ؟ كل شيء بدّه
لحلحة !.. »

وكان منصور يستطيع ان يحتمل ذلك كله من ابويه ومن
زملائه ، ولكن هناك شيئاً آخر لا يطبق احتماله ، وهو وحده
الذي يملأ نفسه بالمرارة والنقمة والقنوط ، فحتى (نادرة)
ابنة خالته ، التي كايمنّي النفس بأن يقترن بها حين يتحسن
مركزه وتعلو درجته ، اصبحت هي ايضاً لا تستطيع ان تخفي
خيبتها فيه .

كانت نادرة حينما التحق منصور بخدمة الحكومة طفلة
في العاشرة من عمرها ، وهي الآن في العشرين . لقد كان
يحبها كثيراً . وكانت هي تحبه منذ سنوات ، وكان حديث
زواجهما في البداية يملأ اغلب الزيارات المتبادلة بين امها
وامه . وكانت هي في البداية تشعر بالفخر لان ابن خالتها موظف ،
والمستقبل امامه مفتوح ، ويسعدها ان تقترن به . وكانت تمنّي
النفس في انه لن يلبث ان يصبح موظفاً كبيراً ، فتحسدها
رفيقاتها على زواجها به ، حين تصبح (زوجة منصور بك !)

ولكن تعاقب الأيام والسنين ، والدرجة العاشرة لا تتزحزح ، جعلها تنكش على نفسها وتشعر بالخجل ، فقد راحت زميلاتهما يتهاوسن فيما بينهما " حول ابن خالتها الموظف الصغير الخائب ! وزاد في خبيتها وانكماشها أنها سمعت مرة رفيقة لها تحدث أخرى وتقول : « كل الناس يمشوا لقدام ، ومنصور وحده بمشي لَوْرَا .. » فتجيبها الأخرى : « هذا بخت نادره اللي بتباهى فيه ؟ يمكن يكون كعبها اللي خلاه يخيب ويظل بمكانه عشر سنين ورا بعض ! الدنيا وجوه وعبتات !! » ثم تضحك الفتاتان شامتتين ، ولا تفتنان الى وجود نادرة الا " بعد أن تجتازها بسرعة ، وتلمحها في عينيها دموعاً تحاول أن تخفيها .

منذ ذلك الحين أخذت نادرة تقلل ما استطاعت من زيارة خالتها ، وتتحاشى جهداً الخوض في حديث الزواج ، وجعلت تلح " على أمها ان لا تبحث هذا الموضوع أو تطرقه مع خالتها . وكان ذلك مثاراً لدهشة أمها وخالتها معا ، وإن كانتا هما ايضاً تشعران بالألم والخيبة لعدم تمكن منصور من تحسين مركزه بالترقية ولو درجة واحدة .

وأحسَّ منصور إحساساً رهيباً بالجوِّ الكئيب الذي يحيط به . لقد أصبح يكاد يختنق في هذا الجوِّ المموم . حتى نادره لم تعد تزوره ، بل أصبحت تتهرب من رؤيته ، وإذا رآته من بعيد في الطريق تجنَّبه ، ولم تعد تضحك له ، أو تؤنسه بكلمة !

لقد كان ذلك أكثر مما يطيق .

ولكنَّ نادره لم تكن كرهه ؛ كانت على العكس تحبُّه كثيراً . إنها تريده زوجاً لها ، ولكنَّ أحاديث الناس الشامتة تجرح كبرياءها . إنها تودُّ لو تستطيع أن تسحق هؤلاء الناس بقدميها ، وتقف وحدها الى جانب منصور في المعترك ، تسنده وتقوّي عزيمته . « ليش ، همَّ كلَّ الناس اليّ بتجوزوا موظفين كبار وبكوات ؟! » ولكنَّ كبرياءها ، وتقاليده المجتمع الذي تعيش فيه ، ترغمها على أن تكبت الحبَّ في قلبها . وهي لم تيأس ، وإن كان اليأس من نجاح منصور قد ملأ نفوس الآخرين من حولها .

وهي لا تجرؤ على ان تبوح لمنصور بمشاعرها هذه ، فقد تزيد بذلك من جراح كبريائه . وخير لها أن تصمت ،

وان تبتعد ، فقد تدور الايام بغير ما دارت به حتى الآن ، على الرغم من عنادها الطويل .

ورأى منصور أن البقاء في بلده أصبح بغيضاً . إن عليه أن يهرب من الجو الخانق الذي يعيش فيه .

لقد كان في وسعه أن يقف في الميدان صابراً ، رابط الجأش ، لو وقفت معه نادرة ؛ أما وقد ابتعدت هي ايضاً عنه ، فيجب أن يغادر البلد ، ويضرب في الغربة بكل ما يستطيع من جهد وطموح ، وما في ساعديه من قوة ، فقد يتاح له أن يحيل خيبته في بلده الى نجاح في بلاد الآخرين ، وعند ذاك يثبت لكل من حوله أنه لم يجب لثمول في عزيمته ، أو قصور في ذكائه ، أو نقص في مقدرته ، بل لاسباب أخرى من خراب بعض الضمائر ، ومن تفشي المحسوية والرشوة والوساطات والنفاق ، مما لم يكن يستطيع مسايرته والتمرغ في حماته كما يفعل الآخرون .

ولم يصارح أحداً بعزمه ؛ حتى نادره - وهي كل شيء له ههنا - لم يقل لها شيئاً . وبعد شهر من السعي الدائب الصامت حصل على تأشيرة سفر الى اميركا ، فقدم استقالته

من الوظيفة ، وغادر بلده بين دموع أبويه وتوسلاتهما . ولم يذهب لوداع نادره . وادركت هي السبب ، وعذرت منصوراً ، وتمنّت أن يعود من غربته ناجحاً .



منذ اللحظة التي صمّم فيها على الاغتراب ، وضع لنفسه هدفاً يسير اليه ، وبرناجماً يبلغ به الى هدفه ؛ وكثيراً ما تكون الخيبة في البداية سبيلاً الى النجاح فيما بعد . وقد أراد منصور ان يحيل خيبته في بلده وفي مستهل شبابه الى نجاح في مغتربه ؛ وهو يعلم أنه ذاهب الى دنيا لا تعرفه ، ولا هو يعرف فيها أحداً ؛ ويعلم إنه سيشقى ، وسيصارع الفاقة والحرمان ، ولكنه مصمّم على ان ينتصر مهما كلفه ذلك من جهد وصبر وتضحية ، ثم يعود الى بلده ، ويرغم أهله على تقديره واحترامه بعلمه ومقدرته .

وفي اميركا كان على منصور أن يبدأ من أسفل السلم ، فبدأ خادماً في مطعم يغسل الصحون والحلل ؛ ثم انتقل عاملاً في احد المصانع الكبيرة . وفي المصنع قرّر منصور ان

يستقرّ ، وان يقضي مرحلة الغربة وفق برنامج عملي صامت ، ولكنه في صمته جازم مصمّم .

كان يجعل نهاره للعمل ، ومساءه للدرس ، فقد اراد ان يجاهد ما استطاع ليحصل على شهادة جامعية مهما يطل عليه الامل .

ومضى في برنامجه لا يدير بالاً الى شيء من مغريات الحياة الاخرى ، الا ما قلّ ؛ ولم يرضَ ان يلهيه شيء عن هدفه مهما يكن فيه من المغريات .

ومضى على عمله في المصنع عام واحد ، كان في خلاله يبدي من ضروب النشاط والمثابرة ما استحقّ عليه تقدير رؤسائه وحبّ زملائه . فازداد راتبه ، وارتقت درجته ؛ وكلما ازداد في عمله اتقاناً ومهارة ازداد تقدير رؤسائه وتضاعفت اجوره . وما كاد يكمل عامه الخامس حتى اصبح مسكراً تيراً خاصاً لمدير المصنع .

خمس سنوات في الغربة توصله الى مركز مسكراً تيراً لمدير المصنع ، وعشر سنوات في بلده لم ترفعه حتى الى الدرجة التاسعة ، التي لم يكن يزيد راتبها على تسع جنيهات في الشهر !

ولكن الامر مختلف هنا عنه هناك ؛ فهناك يقدر الناس عمل العامل والموظف ومقدرته ونشاطه ، وهناك كانوا ينظرون الى شفعاثه ووسطائه ، ويقدرون نفاقه وتلوّنه ؛ فان لم يكن له وسطاء وشفعاء ذوو نفوذ ووجاهة ، وإن لم يحسن النفاق والتلوّن ، لم يتقدم في مركزه ، ولم يجد تقديراً لدى الرؤساء .

عشر سنوات في الدرجة العاشرة هناك ، وفي وظيفة « حافظ أضيير » ... وهنا ... بخمس سنوات قفز من عامل بسيط الى مركز سكرتير لمدير المصنع . ومنصب مدير المصنع هنا ليس أقل أهمية من منصب مدير دائرة هناك ؛ ومركزه هو الآن لا يقل عن منصب وكيل مدير الدائرة في بلده ، بل هو أعلى راتباً من ذلك بكثير جداً !

أليس من سخف الأيام أن يصل منصور هنا ، في خمس سنوات ، الى منصب لم يكن يطمع في بلده بأن يبلغ ما هو دونه ، حتى بعد خدمة خمسين سنة أو أكثر ؟! بل لم يكن له أمل ، أو بصيص من أمل ، في بلوغ مثله !

ومضى منصور في برنامجيه ، يعمل في النهار ويدرس في

الليل ، ونجاحه في دروسه لا يقل عن نجاحه في عمله ، والحظ
يتسم له ، ويفرش له طريق المستقبل بالورود .

ولم ينس منصور والديه في غربته ، فكان يدخر مما
يكسبه كل شهر قسطاً من المال يعث به اليهما ، مشفوعاً
بأخبار نجاحه وتقدمه العلمي والعمل . وبهذا المال الذي كان
يرسله استطاع أبوه أن يوسع عمله ويحسن تجارته ، وأن
يبنى بيتاً حسناً جميلاً في المدينة .

وأخذ أهل بلده يتناقلون أخبار نجاحه ، ويتحدثون
عنه في مجالسهم غير ما كانت أحاديثهم عنه قبل الأعتاب :
« الله طل عليه في اميركا .. لو ظل هون كان بعده في
العاشرة .. من حافظ أضاير صار اليوم سكرتير مصنع ،
وُبدرس في الجامعة كان .. هيك الزلام والا بلاش ..
بشطارته صار أبوه وجيه يتصدّر المجالس ، وينسمع كلامه ..
مش صحيح إنّه الغربه بتضيع الأصل ، هذي هيه خلّت
منصور يصير ويتصور ، ويجمع ثروه ومال وعلم .. »

هكذا كانت تدور الأحاديث بين الرجال والنساء من
أهل بلده ، وهم يتساءلون : « اتراه سيعود الى بلده ، أم يبقى

بعيداً عن البلد الذي لم يلق فيه غير الخيبة ! « فمن قائل إنه سيعود ليعخدم بلده ، وسينال فيه مركزاً رفيعاً ؛ ومن قائل أنه سيظلّ بعيداً عن كلّ ما يذكره بخيسته الأولى .

أما نادره فقد كان يُفرحها كثيراً ما تسمع من أخبار نجاحه في الغربة ، ولكنها الى جانب ذلك كانت شديدة القلق من أن يطير من يدها الى الابد ، ففي أميركا حسان لا عدّ لهنّ ، وفيهنّ إغراء وفتنة ليس من اليسير أن يثبت لهما شابّ كان في بلده الشرقيّ المتزمتّ يعاني الحرمان ، وأصبح الآن يعيش في جوّ من الفتنة لا حدّ له .

كان ذلك يقلقها كثيراً وينغص عليها صفو الحياة . وكانت أمها وخالتها تلمسان ذلك في عينيها وحديثها . وكان اكثر ما يؤذيها أن تسمع على ألسنة رفيقاتها احاديث عنه تصيب كبرياءها بجراح بليغة . فقد قالت لها مرة إحداهنّ :
ممازحة :

- العصفور طار من القفص ، وانت إيش بَعْدك

بتستتني ؟!

وقالت لها اخرى ، ممازحة كذلك :

— منصور بك —

— يا اختي علينا وعلى بختنا ! هو الي بروح برّا وبشوف
الشقر والبيض ، عُمّره برّج لنا ؟!
وقالت ثالثة متنهّدة :

— يا حسرّه على بختنا ! هناك شبابنا بشوفوا اشياء بتطير
العقل ... الذُرْعان والصدور والسيقان كلّها عريانه ...
والواحد منهم بروح مع الي بتعجبه عالمطاعم وشمّات الهوا
والتيارات ، وما حدا بقول له وين رايح !.. اي شو بدّه
يرجعهم لعندنا ، الي واحد منهم إن حكى مع اخته في الطريق
بسمع الف كلمة ، وإن زار بيت عمّه او بيت خاله بمحكوا
عليه اشكال والوان !..

وحقاً لقد كان منصور يرى من الفتنة ، ويجد من حرية
الاختلاط كلّ ما تشتهيّه نفسه ، وكان يستطيع أن يتزوّج منذ
العام الاول لوصوله الى اميركا ، ولكنه وضع لنفسه برنامجاً
عسيراً يحتاج الى كلّ جهوده ووقته ليصل به الى هدفه ؛
وليس الزواج من برنامج ولا من هدفه الآن .

ولكنّ فتاة شقراء ، من زميلاته في الجامعة التي يدرس
فيها ، كانت تعجب به في أول الأمر ، ثم تحوّل إعجابها الى

حب . وكثيراً ما كانت تطلب اليه أن يرافقها في نزهة ، أو يأخذها الى مقهى أو مطعم ، ولكنّه قلّمَا يستجيب لها ، فقد كان وقته - بين العمل والدرس - أضيق من أن يتّسع لذلك أكثر من مرة واحدة في الاسبوع ، كان يمنح نفسه فيها إجازة نصف يوم للراحة . وقد رافقها أول مرة الى أحد المطاعم ، فراحت تسأله عن نفسه ، وعن بلده ، وعن حياته ؛ وكان يجيبها باقتضاب .

وفي المرات التالية أخذت تكشف له عما في صدرها ، وتبدي له رغبتها في الاقتران به . وعند ذاك حدثها بكل شيء ، وأطلعها على برنامجها الطويل القاسي ، وكشف لها عن هدفه من الغربة . فكان إعجابها بصبره وجلده كبيراً . فقالت له إنها ستقف الى جانبه ما استطاعت ، وستقرب تحقيق برنامجها بصبر مثل صبره ، ولن تيأس من انتظاره .

وأحسّ منصور بأنه يستطيع أن يطمئن إليها ، ويجد لديها العون على بلوغ هدفه . فلم يدعها تنتظر طويلاً . كان هو حينذاك سكرتيراً لمدير المصنع ، وطالبا في السنة الرابعة الجامعية ، وكانت هي طالبة في السنة الثالثة .

فاقتربنا ، واستمرّا في دراستها حتى نالت هي شهادتها في التربية
بعد سنة واحدة ، ونال هو شهادته في الهندسة الميكانيكية
بعد سنتين .

وعلمت فادرة بزواجه ، فبكت كثيراً ، ولكنها لم
تستطع ان تلومه ، فقد تخلّت هي عنه حينما كان يحتاج الى
انسان واحد يقف الى جانبه ، ويثبت عزيمته أمام عواصف
الحياة والفاقة . وهي الآن تحني ثمره الجفاء الماضي .
وهي تعرف أنها لم تتخلّ عنه راضية ، ولا جفّته
راغبة في الجفوة ، وكان كل أملها ان ينجح ، وان يعود
فيقترن بها ، فتُسكّت بذلك السنة الثمرات الشامتات من
رفيقاتها . ولكنه الآن طار من يدها حقاً ، كما كنّ يقلن ،
وهي الملوثة وحدها على ذلك .



بعد ان نال منصور شهادته الجامعية رأى ان برنامجهم قد
انتهى ، وان هدفه قد تحقّق . لقد وصل الى مركز طيّب في
المصنع ، واصبح والده ، بفضل ما ارسله اليه من مال ، في

مركز حسن بين اهل بلده . فاذا ما عاد الآن الى وطنه فلن يكون إنساناً مغموراً ، بل سيجد الدوائر الحكومية والشركات تفتح له صدورهما ، وسيتبوأ منها مركزاً رفيعاً ، اذا لم يشأ ان يعمل عملاً حرّاً لنفسه .

وحتماً إن اي منصب في بلده لن يدرّ عليه من الربح اكثر من جزء صغير مما يكسبه الآن في غربته . ولكن الغربة ، على كل حال ، امر لا يُحتمل طويلا ، والوطن عزيز على اهله مهما تكن الحياة فيه سيئة او قاسية .

ومنصور لم يغترب عن وطنه كارهاً له ، وإنما غادره لأمر واحد ، وقد انتهى الآن ذلك الأمر ، ووطنه احقّ به من ديار الأجانب ، على الرغم من انه اصبح الآن مرشحاً لتولّي منصب المساعد الفني لمدير المصنع العام ، بعد ان نال شهادة الهندسة الميكانيكية ، مضافة الى الخبرة التي اكتسبها في سنوات العمل .

كان الاغراء هنا يجذبه بكل وسائله ، وكان الحنين هناك يجذبه بكل وسائله كذلك ، والحنين اقوى من اي إغراء آخر ؛ ومنصور من الشعب الذي يقول شاعره :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة

واهلي وإن ضنّوا عليّ كرام

فنفحة من نسيم وطنه ، وزهرة من رباه ، احبّ الى نفسه من كلّ ناطحات السحاب في بلاد الآخرين .

ولكنّ شيئاً واحداً عاك منصوراً عن العودة بعض الوقت . لقد مرضت زوجته ، واضطرتّ الى دخول المستشفى فترة من الزمن ، ثم خرجت منه بعد اكثر من شهر دون ان تشفى شفاء تاماً ، وظلّت تتقلب على اشواك المرض الخبيث وشفاره الحادّة فترة اخرى ، فقد كانت مصابة بسرطان المعدة ؛ وعلى الرغم من كلّ ما بذله الطب في علاجها فقد نفذ فيها حكم الأقدار ، بعد آلام مبرّحة تجرعت غصصها اكثر من ستة اشهر .

وكان موتها سبباً آخر يجعل منصوراً يُسرّع في العودة الى وطنه واهله ، فلم يمكث بعد وفاتها اكثر من شهرين ، ثم كتب الى والده يخبره باعتزامه العودة ، ويحدّد له موعد الوصول .

وحمل منصور جراح قلبه الدامية ، وركب الطائرة

عائداً الى البلد الذي غادره قبل ثماني سنوات فتى تملأ نفسه
مرارة الخيبة ، وفي مطار بلده كان في استقباله ابوه وعدد
كبير من اقاربه وزملائه القدامى في العمل وبعض الموظفين
الآخرين الذين كان يعرفهم ، وقد وجد بينهم عدداً غير قليل
لا يزالون في وظائف صغيرة ، ولم يتح لهم الحظ فرصة الارتقاء
في الدرجات ، فكانوا يصابحونه وفي عيونهم نظرات الحسد
والخجل معاً ، وهم يرحّبون به قائلين :

— أهلاً وسهلاً منصور بك . الحمد لله على السلامه !

منصور بك ؟!

كم كان يودّ من قبل أن يصل في بلده الى الدرجة التي
يخاطبه فيها الناس بهذه العبارة ! أما الآن فما ازهدده بهذا
اللقب ، وما أسمح ان يدعوه به الناس . ولذلك اجاب بعض
مهنّتيه بقوله :

— انا لست منصور بك . انني لا ازال منصور بن محمد

الراضي ، كما كنتم تعرفوني !

ولكن الذين جاؤوا في المساء الى بيت والده ليسلموا
عليه ، لم ينقطعوا عن تسميته « منصور بك » ، فكانوا

- منصور بك -

يقولون له :

- الحمد لله على سلامتك ، يا منصور بك !

- غيبتك طالت يا منصور بك !

- والله اشتقنا لك يا منصور بك !

- البيت نور يا منصور بك !

او مخاطبون والده بقولهم :

- يهنيك بسلامة منصور بك ، يا ابو منصور !

- والله الدار بدون منصور بك ما كانت حلوه !

وبكثير من اللطف والحياء قال منصور وهو يشكرهم

على ترحيهم به :

- اذا كان في الناس من يعتقدون بان لقب (بك) يزيد

في اقدارهم ، ويرفعهم فوق منازلهم ، فلست احب ان يكون

لي قدر ومنزلة الا بخلقى وانسانيتي ؛ والقب ربيع على

ارنب او ثعلب لن تخلق من اي منها اسداً ؛ وتجريد الأسد

من كل لقب لا يحيله ارنباً او ثعلباً . والذي ينتفخ باللقاب

هو انسان محروم من كل قيمة ذاتية ، لذلك يكبر باللقب

وحده .

— منصور بك —

وبين دهشة الحاضرين ونظراتهم فيما بينهم باستغراب لهذا الكلام الجديد على أسماعهم ، مضى منصور يقول :

— حينما كنتُ في الدرجة العاشرة في بلدي هذا ، كنت احسد الذين وصلوا الى السادسة وما فوقها ، لأنهم أصبحوا يُدعون بلقب (بك) ، ولأن هذا اللقب يثير تقدير الناس وإكبارهم في هذا البلد ؛ اما الآن فقد زهدت نفسي بكل لقب ، لأنني أدركت في الغربة ان ما يثير الإعجاب والاكبار هو العمل الكبير النافع ، والخلق الرفيع القويم ، وليس اللقب والمنصب . الناس هناك يتدرّجون في الوظائف والمناصب بحسب قدرتهم ونشاطهم واخلاقهم ، لا استجابة لنفاقهم ووساطاتهم وشفعاتهم . وقد تعلّمتُ من ذلك دروساً كثيرة كنتُ في حاجة الى تعلّمها ، ونتيجةً لهذه الدروس وصلتُ الى اكثر مما كنتُ اتمنّاه من النجاح في العمل وفي الحياة ، دون ان ابذل شيئاً من كرامتي وانسانيّتي !



وبعد السهرة وقف منصور يودّع زائريه على باب المنزل ،

ويشكرهم على الزيارة ، فلما خرج الجميع ، واستدار منصور ليعود الى داخل المنزل ، رأى يداً خجلاً مترددة تمتد لمصافحته ، ووجهاً مطرقاً الى الارض بحياء وحزن ، تحاول صاحبه ان تخفي الدموع المترققة في عينيها بابتسامة خجلى . فامسك باليد الممدودة نحوه بكلتا يديه وراح يربت عليها ، ثم افلت احدى يديه ورفع بها الوجه الحزين الخجول الذي امامه ، وابتسم ابتسامة ملؤها الرضى والتشجيع ، وعادت الى قلبه ذكريات الحب القديم حيّة نابضة من جديد ، فقال :

- نادره ! انا اعرف انك تحمّلت كثيراً ، وصبرت طويلاً ... اترى ؟..

ولم يكمل كلامه . لقد اراد ان يقول شيئاً ، ولكنه تردد ولم يجرؤ لسانه على القول ، فقد تذكر انه نسيها في الغربة وتزوج امرأة غريبة ، فهل تتناسى نادرة ذلك الآن ؟ ! وابتسمت نادرة من بين دموعها ابتسامة أعمق واكثر صفاء ، ورفعت اليه عينيها فيها شوق وحب وأمل ، وفيها في الوقت نفسه ، خوف وخجل من الفارق البعيد بين ثقافتها الابتدائية الساذجة ، وثقافته الجامعية العالية ... أما الزوجة

— منصور بك —

الغريبة التي ماتت فليس شبّح ذكرها بالذي يشغل بالها ، او
يؤثر على عاطفتها . ولكنها لم تقل شيئاً .

فقال منصور وهو يربت على يدها بمودة وحنان ،
وما تزال يده الاخرى ممسكة بيدها :

— لن تخجلي بي بعد اليوم ! إن الله وإرادة الحياة
لأرأف بنا من أبناء الحياة .

فمسحت نادرة دموعها ، وأشرق وجهها بابتسامة
الانتصار . ثم ضغطت على يد منصور وقالت :

— أنا سعيدة وفخورة فيك يا منصور ! الحمد لله على

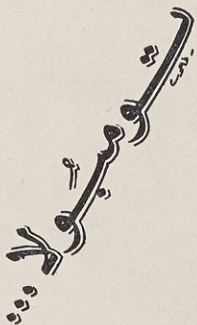
سلامتك !

وخرجت مع أمها في وسط الليل الساكن ، وهي
تحسّ بأن النجوم كلها تضحك لها ، والقمر الساطع يبتسم لها
التهنئة ، وأن الدنيا كلها أضيّق من أن تتسع لفرحتها . انها
تودّ لو كانت جميع فتيات المدينة امامها الآن ، لتتحدّاهنّ
وتتخالّ بينهنّ مزهوة كالطاووس ، فيعرفن أن « العصفور
الذي طار — كما كنّ يقلن — قد عاد الى يديها من جديد ،
ليغنّي لها اغاني الحب والرضى ، وليحوّل شماتتهنّ القديمة الى

غيط يمزق منهن المرائر! لقد كان العصفور الذي طار صغيراً
قليل الشأن ، أما الآن فقد عاد اليها نسرأ شامخاً عظيم الشأن ؛
فليس في المدينة كلها من يستطيع أن يدعو الآن باسمه المجرّد
« منصور » . . . لقد أصبح الآن على السنة الجميع ، وفي نفوس
الجميع « منصور بك » ، بحق ، لا بفضل درجة او وظيفة ،
بل بعلمه وذكائه وعصاميته ؛ وأهم من ذلك ان هذا اللقب الذي
كان من قبل كبيراً في عينيه ، وما يزال كذلك في عيون
الناس ، أصبح مشاراً لسخريته واستخفافه ، لأنه اكبر منه
واجل شأنا !



[إنهم في الدير يعلموننا ان
الضمير رقيب صارم على اعمال
الانسان ، وان على المخطيء
ان يحاسب نفسه ويعتذر عن
اخطائه ، وان الرجوع عن
الخطأ فضيلة كبرى ...]



- راجي شلهوب؟! الستَ حقاً راجي شلهوب؟!
فتفرّستُ في وجه سائلي الذي يقف الى جانبي امام
بائع الطوابع في دائرة البريد ، ورحتُ اكدّ ذهني
لأتذكر اسم السائل الأ شيب الشعر الذي عرفني . إن في
هذا الوجه بقايا من وجه كنتُ اعرفه من قبل ، ولكنّ
الذاكرة لا تسعفني الآن بمعرفته .

فعاد يسأل وهو يتسم :

- ألم تتذكّرني بعد ؟ يبدو ان شعري الذي ابيضّ
قبل او انه قد اخفى عنك صورتي التي كنت تعرفها ونحن طفلان
في الميتم !

فتذكّرته للحال . ذكّرته كلمة « الميتم » ومددت
يدي اصافحه بحرارة وشوق ، وهتفت :

- اميل نعماني ! ما اسعدني بلقائك ! إن شعرك الأبيض
لم يمحُ ما عرفته في طفولتك من المرح العاثر ... اتذكر كم
سنةً مرّت دون ان تتقابل ؟!

- اثنتا عشرة سنة ... إنها عمر طويل كما ترى ...

- تومبولا -

منذ خروجي من الميتم . اذكّر ذلك ؟
فقلت ضاحكا :

- وحكاية الطرطور الاحمر ، اذكّرها ؟! لقد كانت
طفولتنا حمقاء !

- وهل في الطفولة غير الحماسة البريئة ؟ ومع ذلك
فجملها في حمقها ونزقها !

وبعد وقفة قصيرة صافحته مودّعاً ، ومضيت لألقي
برسالي في صندوق الرسائل ، ورجع بي خيالي الى الأيام التي
ذكرني بها هذا اللقاء المفاجيء ...



حينما كنت طالباً داخلية في الميتم ، وانا بين الثانية عشرة
والسادسة عشرة ، كان من عادة الميتم ان يحتفل كثيراً
بشجرة عيد الميلاد ، وكنا نحن الطلاب نقضي الاسبوعين
السابقين للعيد في تهيئة زينات الشجرة ، فنعكف على الورق
الملوّّن نصنع منه قبعات مختلفة الأشكال ، وطيوراً ، وحيوانات
متنوعة ، وفوانيس ، واشكالاً زخرفية يتفنّن فيها خيال
الطفولة كما يشاء . وكانت إدارة الميتم تحضر لنا عديداً من

حبّات الجوز ، فنعكف على صبغها بأصباغ فضيّة وزهبيّة ،
لتتوهّج تحت الأضواء الساطعة حينما نعلقها على الشجرة .

وفي الليلة التي تسبق العيد كانت تتصب في وسط
القاعة الكبرى شجرة صنوبر ضخمة ، تقطعها من حديقة
المقيم لتلك المناسبة المبهجة . وكانت تتدلى من اغصانها عشرات
من عناقيد الضوء ، ومئات من الأشياء الصغيرة الملونة
الزاهية ، ومن الهدايا المختلفة ؛ وإلى جانبها كانت تقام مغارة
كبيرة من الورق المقوّى المصبوغ بألوان مختلفة ، وتتناثر على
جوانب المغارة حشائش واعشاب خضراء طرية زاهية ، وفي
شعابها خراف صغيرة بيضاء ، وتمائيل رعاة ، وثلوج تتناثر على
المغارة وعلى الشجرة ، فيمتزج بياضها الناصع بالأشعة الذهبية
الوهاجة التي ترسلها عشرات المصابيح الكهربائيّة الصغيرة
الساطعة في السقف وعلى جوانب القاعة . وفي داخل المغارة
كان طفل يضطجع في مذود ، ومن حوله حمار وثور يدفئانه
بأنفاسهما ، وتمثالا السيدة العذراء والقديس يوسف جاثين
بخشوع للطفل الجميل الراقد بينهما ؛ وعلى باب المغارة رعاة
راكعون بتقوى وإيمان ، ونجمة فضيّة كبيرة فوق المغارة

ترسل اشعتها حارة دافئة .

كان المنظر جميلاً جداً ، يلهب خيالاتنا بأدفاً المشاعر
وابهج الأحاسيس ؛ وكان الرهبان في تلك الليلة ينزلون الى
مثل طفولتنا ، ويشاركوننا الأحاسيس الطفلة البريئة ، فننسى
في ذلك الجو العائلي الأنيس كل شيء الا العيد ، وشجرة العيد ،
وبهجة العيد .

وكان مما يزيد بهجتنا طاولة كبيرة تمتد في جانب القاعة
بضعة امتار ، وعليها هدايا عديدة مختلفة بعدد طلاب الميتم .
وكان في تلك الهدايا اشياء ثمينة : كمنجاة — لوحة فنية نفيسة
ذات إطار جميل — الكتاب المقدس مجلداً تجليداً فاخراً —
اكورديون — وما الى ذلك ؛ وكان فيها كذلك دمي واشياء
اخرى اقل قيمة ، وبعضها تافه يثير الضحك . وكان بينها
على الطاولة صندوق مفتوح من اعلاه ، وفي داخله اوراق
صغيرة مطوية بعدد الهدايا وبعدد طلاب الميتم ، وكان كل طالب
يتقدم الى الصندوق ويتناول منه ورقة ويفتحها ، وعندئذ
يتقدم مدير الميتم فيسلمه الهدية المكتوبة في الورقة ، بين
هتافات الطلاب وتندراتهم وضحكاتهم الرنانة المرحية .

وكنّا نسمّي هذه « السّحبة » (تومبولا) . وهذه الحفلة كانت ابهج حفلات العام واحبّها الينا . وكانت التومبولا هذه مصدر احاديثنا وتندّرانا اياماً عديدة بعد الحفلة .

في العام الثاني من حياتي في الميتم ، تجمّعنا كالعادة في القاعة الكبيرة ، بجانب شجرة الميلاد الضخمة المحمّلة بالهدايا والأضواء الساطعة ، ورحنا ننشد اناشيد الميلاد الجميلة ، ونحتفل بتلك المناسبة السعيدة .

كانت فرحتنا غامرة ، كعادتنا في مثل هذه المناسبة من كل عام . وجاء دور التومبولا ، ورحنا نتقدم واحداً إثر واحد ، نسحب الأوراق من الصندوق ، وبتناول الهدايا من يد الرئيس ، بين تصفيق الزملاء وهتافاتهم وضحكهم . وجاء دوري ، فمددتُ يدي في الصندوق واخرجتُ ورقة مطوية وناولتها الى الرئيس ليفتحها ويعطيني الهدية المكتوبة فيها .

كانت على الطاولة كمنجّة جميلة ، في غلاف اسمر كالتابوت ، وكانت مكشوفة في وسط غلافها الطويل المفتوح على الطاولة . ومنذ بداية الحفلة كنتُ انظر اليها واصلّي في قلبي ان تكون هي نصيبي من التومبولا هذه المرة . وحينما فتح الرئيس الورقة

كانت عيناى على الكمنجة ، وقلبي يخفق فى انتظار الفوز بها ،
حتى لقد كنتُ اُهمُّ بأن امد يدي لاتناولها ، ظناً بأن صلاتي
قد استجيت ، وانها هي نصيبي المنتظر !

ولكن ما كاد الرئيس يقرأ الورقة حتى انطلقت من
حنجرته قهقهة عالية ، وقل وضحكته ما تزال تتجاوب
بجلجلتها ارجاء القاعة الواسعة :

- راجي شلوب ... « طرطور احمر ! » ...
ثم امتدَّت يده على طرطور من الكرتون الأحمر
منتصب على الطاولة ، فتناوله ووضعهُ على رأسي ، بين ضحكات
الاولاد المتواصلة ، وصيحاتهم المرحّة الصاخبة ، وصفيهم ...
وعلى الرغم من أن الحفلة كانت للتسلية ، ولادخال
البهجة الى قلوب طلاب الميتم ، وانني لستُ أول من نال مثل
هذا النصيب الكاريكاتوري المضحك في التومبولات السابقة ،
إلا أنني شعرتُ بانكماش أليم ... والأنغام الحلوة التي كنتُ -
حتى سحب الورقة من الصندوق - أتخيّلها تنبعث دافئة منعشة
من الكمنجة ، تحوَّلت في نفسي الى أصوات نجيب مكبوت ،
وحشرجات احتضار مخنوقة ؛ وتصوَّرت ضحكات زملائي

المجلجلة سخریات شماتة واستهزاء . فشعرتُ بحاجة شديدة الى البكاء وأنا أعود الى مكاني في وسط عاصفة مدوِّية من قهقهة الطلاب وصغيرهم ، وقد نزعتُ الطرطور عن رأسي وحملته بيدي .

وكان اميل النعماني يقف هناك الى جانبي ، وكأنما فاضت به رعونة الطفولة النازعة الى المرح والسخرية ، فقال اليّ وهو يضرب ركبته بيده من فرط الضحك ويقول :
- ابو طرطور !.. ابو طرطور !..

وراح ينغمّهما ساخرأ وهو لا ينقطع عن الضحك . فشعرتُ نحوه بكراهية شديدة ، ووددتُ لو أهشّم اسنانه لعلّه يكفّ عن الضحك والسخرية . ثم انسجبتُ من قربهِ الى آخر القاعة ، ومزّقتُ الطرطور حانقاً ، وقذفتُ به الى ركن القاعة الخلفي ، واندفعت من عينيّ دمعتان حارّتان ...

لقد كان ذلك من اسوأ أعياد الميلاد في طفولتي !
ثم انتهت الحفلة ، وخرجنا من القاعة لنمضي الى النوم . ولا حظتُ إميل النعماني يسير خلفي مع زميل آخر وهو يضحك ويضع يديه فوق رأسه على شكل طرطور ، ويقول

بنغمته الساخرة الشامتة ؛ « ابو طرطور !. ابو طرطور ! »
وفي فورة من الغضب لم استطع منعها ، استدرتُ نحوه
وصفقتُه على وجهه بكلِّ قوّتي ، دون أن افكّر في العواقب .
واذا بالرئيس يسرع نحوي ، ودون ان يسأل عن السبب ،
راح يشدُّ أذني بيده الضخمة ، حتى حسبتها انخلعت من مكانها ،
ثم قال لي غاضباً : « سأراك في صباح الغد في مكثي بعد ان
تنتهي صلاة القديس » .

وفي الليل امتلأ نومي بأحلام التوايت ، وأنغام كمنجة
غير مرئية ، ووجوه لاعبي السيرك الملوّنة ، وحناقه مع إميل
رأيتي فيها أضغط بيديّ على عنقه حتى يسقط على الارض ميتاً ،
وشرطة يضعون القيود في يدي ويسوقوني الى السجن .
وصحوت وانا ادخل غرفة مظلمة وينطبق ورائي باب حديدي
ذو قضبان ضخمة ، والدموع تبلّل خدّي .

وفي الصباح كانت عقوبتي ان ابقى الى الظهر في غرفة
الدرس اكتب قصاصاً طويلاً .

الطلاب كلهم يلعبون ويمرحون في الساحة ، وانا

— تومبولاً —

وحدي وراء الطاولة ، اكتب واكتب واكتب ، ومرةً افرك
يديّ لاريح اصابعي ، وطوراً اتمطّئ لاريح اعصابي المتعبة من
طول الجلوس وكثرة الكتابة .

حتى إميل النعماني يلعب ويركض مع الآخرين في
الساحة ، لا يناله قصاص ، ولا تصل اليه يد العقاب وهو
السبب في ما اعانيه !.. لله كم اودّ ان انتقم منه !

ولكنّ امرأ لم يكن في الحسبان طراً على الموقف .
إنهم في الدير يعلموننا ان الضمير رقيب صارم على اعمال
الانسان ، وأنّ على المخطيء أن يحاسب نفسه ويعتذر عن
أخطائه ، وان الرجوع عن الخطأ فضيلة كبرى . ولعلّ ضمير
إميل قد استيقظ ، فاذا به يدخل غرفة الصف مع الرئيس ،
ويمدّ يده اليّ معتذراً ، ويقول :

— ساحني ! انا المذنب ... لم اكن اقصد الاساءة اليك !
فوقفتُ اقلّ عينيّ بينه وبين الرئيس ، فهز الرئيس
رأسه الى اسفل مرتين او ثلاثاً ، وقال :

— لقد اخبرني إميل بكل شيء ، وهو الآن يعتذر

إليك . إن الله نفسه يغفر للمسيئين إذا تابوا إليه . هيّا مدّ
يدك وصافحه ، وانزلا إلى الساحة لتلعبا معاً . كل عام وانتما
بخير !

وفي غمرة من التأثر العميق مددتُ يدي وصاغتُ
إميل ، وخرجنا معاً من الغرفة والرئيس ينظر إلينا قريراً ،
كوالد رحيم يرى السلام والسعادة يختيمان على بيته ، ويملآن
حياة ابنائه !



[وحدة في وسط مجتمع
عامر؟! وهو يحسّ احساساً
داخليا ان هناك عيوناً من
حواله تراقب يديه وهما تتلمسان
المائدة بحثاً عن شيء عليهما .
وشعرت ايلين لاول مرة
بالاعجاب الحار ببول ،
وبقوته النفسية الرائعة ...
وقالت : « انت عظيم يا بول !
إن ثقتك بنفسك تملأني بك
اعجاباً ... »]

سفر صهيون

كان جالساً في الزاوية الخلفية من البار ، خلف مائدة مستديرة ، وكان وحيداً ، وأمامه على المائدة زجاجة بـيرة صغيرة وكأس ، وكانت إحدى يديه تمسك بالكأس ، والاخرى تمسك بالزجاجة ؛ وفي ركن فمه غليون ينفث دخانه متلاحقاً . ثم يرفع يده عن الزجاجة فيسحب بها الغليون من فمه ، ويرفع الكأس بيده الاخرى ، فيجرع منها جرعة ثم يعيدها الى مكانها من الطاولة ، ويظل ممسكاً بها بيده كأنما يخشى عليها أن تهرب اذا هو أفلتها ، ويعيد الغليون الى فمه ، وتروح يده تتلمس الطاولة بحثاً عن الزجاجة ، وقد قرب وجهه من الطاولة ، وزمّ عينيه حتى لتكاد رموشها الشقراء المكسرة ينطبق بعضها على بعض ، وهي ترمش وترتجف بسرعة ملاحقة يده في البحث عن مكان الزجاجة على الطاولة .

كان شاباً نحيلاً ، مديد القامة ، أشقر الشعر ، ضعيف البصر ؛ وبين الفينة والفينة كان يمسح شديقه حتى لتجسب فمه قد وصل الى حدود أذنيه . ولم أكن قد رأيته قبل هذه المرة .

- في حلبة الرقص -

و كنت اذ ذاك أجلس في البار ، والى جانبي فتاة اميركية ذات
شعر أشقر يتدلّى على كتفها كشلال من وهج ، وكنّا
نحتسي كأسين من (الفيرموت) لفتح الشهية قبل ان ندخل
الى قاعة الطعام المجاورة لتناول الغداء . وكان اسم الفتاة
ايلين ديوك . فلتُ عليها وسألتها هامساً :

- أتعرفينه ؟

فسألت بسرعة : - من هو ؟

فقلت مشيراً بيدي اشارة خفية نحوه : - السيد الذي
يتلمّس الطاولة بحثاً عن الزجاجة وهو يدخن الغليون .

فالتفتت ايلين الى حيث أشرت ، ثم قالت بصوت فيه
اشفاق وتأثر :

- مسكين ! انه شاب انكليزي قدم أمس ليدرس
التأليف الموسيقي في روما ، ونزل معنا في منزل الطلاب . لقد
رأيتُه امس بعد وصوله ، وتأثرت له كثيراً . انه لا يعرف
احداً هنا .

— في حلبة الرقص —

ثم امسكتُ بكأس الفيرموت التي امامها وقالت :

— هيا نهض ونجلس معه لنؤنسه .

وحملت انا ايضاً كأسى ، وقلت وانا انهض من مجلسي :

— هلا بي بنا .

ولم يفطن الشاب الى وصولنا حتى هتفت به ايلين :

— هالو بول ؟ اسمح بأن نشاركك الجلسة ؟

فرفع الينا وجهه ، وزمّ عينيه ، وراحت رموشه
تتراقص بسرعة ، ومن خلال شذقيه اللذين مطّهما الى حدود
اذنيه قال دون ان ينهض من مجلسه :

— هالو مسّ ديوك ! انا سعيد برؤيتك . اجلسي .

فقدّمتي ايلين اليه ، ثم التفتت اليّ وقالت :

— مستر بول ! انه قدم امس من بريطانيا . انه مؤلّف

موسيقى .

وبينا انطلقت الأنسة ديوك تحدّثه ملاطفة ، كانت عينيّاي

تتفرسان في عينيه الضيقتين الكيليتين ، وحركات يديه
العصية على الطاولة حيناً ، وحيناً على الزجاجاة والكأس ،
وتارة على شاربيه الاشقرين الدقيقين المتدلّية اهدابها عن
طرفي فمه ، يقتلها بعصية او يحسّس عليها . وكنت اتساءل في
نفسي : « أيؤلف الموسيقى وهو لا . يصير إلا البصيص
الضئيل ؟ ! » ولم اتبادل معه الا حديثاً قصيراً جداً : عبارتين
او ثلاثاً ، ثم تركت المجال لأيلين لتؤنس جوّه بحديثها .

وانتهينا من الشراب ، فقالت ايلين :

أنمضي لتتناول الغداء ؟

ومن الباب القريب المفضي الى قاعة الطعام دخلت ايلين
وتبعناها ، فاخترنا مائدة قريبة وجلسنا حولها ، ثم انضمت
الينا فتاة فرنسية من زميلاتنا في المنزل اسمها فرنسواز ، وراح
الحديث يدور بالانكليزية والايطالية والفرنسية . ثم تركنا
بول يجاذب ايلين الحديث وحدهما اغلب الوقت ، وانا وفرنسواز
نتحدث وحدنا . ولاحظت ان فرنسواز كانت تتجنب النظر
الى بول ، نافرة من شكله وحركاته ، ولم تشعر بالرتاء له ،

وكانت احياناً تغمزني وهي تكاد تطلق ضحكة السخرية كلياً
رأته يتلهَّس المائدة بحثاً عن صحن الطعام ، او الشوكة ، او
السكين ، او الخبز ؛ وتزداد سخريتها كلياً رأته شاربيه
يتلوَّثان بصالصة البندورة ، او يتدائى منها جبل معكرونة او
غير ذلك . وقبل ان ينتهي بول من تناول الصحن الثاني كانت
فرنسواز قد انتهت غداءها ، فاعتذرت وغادرت المائدة، ودعتني
لا تناول معها فنجان قهوة في البار ، وبقي بول وايلين وحدهما
يتابعان تناول طعامهما .

لم تكن فرنسواز وحدها هي التي لم يعجبها منظر بول ؛
فقد كانت اغلب فتيات المنزل ، وهنَّ من شعوب عديدة ،
ينظرن اليه بسخرية ؛ واذا شاركته احداهنَّ في سير قصير
او في جلسة ما ، فكانت تفعل ذلك لتتسلَّى بمراقبة حركاته:
مشيته المتعالية ، وخطواته الواسعة البطيئة ، ويديه اللتين
لا تكفَّان عن العبث بشاريه الا لتعبثا بالغليون او علبة
السجائر او زجاجة البيرة - وهو لم يغيّر شراب البيرة مرة
واحدة منذ ان جاء الى المنزل ؛ سواء أ كان يطلبها لنفسه أم
كانت تطلبها له مسّ ديوك .

أقول مس ديوك لاني لم ار زميلا او زميلة سواها
يقدم شرابا لبول ، او يشاركه في جلسة ودّية طويلة .
ولكنه هو كثيراً ما كان يدعو الزميلات الى شرب كأس معه
في البار ، وكنّ غالباً يعتذرن وينصرفن عنه وهن يضحكن
ضحكة مكتومة ساخرة .

وكان هو يشعر بذلك ويعاني منه الكثير في نفسه ،
فهو في اغلب الاحيان وحيد على مائدة الشراب ، وعلى مائدة
الطعام ، وفي قاعة الجلوس ، وقاعة المطالعة . واذا اراد
الخروج للنزهة كان يخرج وحده ، الا اذا رافقته ايلين .
وكانت ايلين ترافقه او تجالسه بدافع الاشفاق ؛ وتشعر بأنها
تؤدي بذلك عملا انسانياً نحو شاب في حاجة الى رفيقة تؤنس
عزله . انه في سجن قاس من عاهته المؤلمة - كما كانت تقول
ايلين - وتزداد قسوة سجنه هذا بالوحدة ، وتزداد وحدته
قسوة اذ يرى الزملاء من حوله يجلسون معا ؛ ويتحداثون ،
ويضحكون ، ويشربون ، ويتخاضرون ، ويغنّون مرحين .
وحدة في وسط مجتمع عامر؟! وهو يحس " احساسا
داخليا ان هناك عيونا من حوله تراقب يديه وهما تتلمسان

المائدة بحثاً عن شيء عليها . يحس بذلك حيناً يشعر بصمت
قصير يسود من حوله وهو يبحث عن ذلك الشيء ، ثم
يتجاوب في نفسه صدى ضحكة ساخرة مكتومة تنطلق على
مقربة منه من أكثر من فم واحد . وعند ذاك تمضي رموشه
تراقص بسرعة عنيفة من عينيه المزمومتين اللتين تكادان
تلتصقان بظهر المائدة ، أو تمضي اصابعه تعبت بشاريه بحركات
عصبية سريعة ، أو يمد يده الى جيوبه بحثاً عن علبة السجائر
وعلبة الثقاب ، ثم يفتح علبة السجائر ويرفعها بيد الى مقربة
من عينيه ، وباليد الاخرى يتلمس السجائر ليتناول واحدة
منها يضعها بين شفثيه المبطونتين الى حدود اذنيه ، ثم يطبق
العلبة ويعيدها الى جيبه ، ويفتح علبة الثقاب قرب عينيه
ويعضي يحسس على عيدانها حتى يخرج منها عوداً ويشعله
ويشعل بلهيه سيجارته .

كان يفعل ذلك وهو يحاول دائماً ان يبدو طبيعياً ، غير
مبال ، كأنما لاتهمه الوحدة ، ولا يثير شعوره ابتعاد الآخرين
عنه . انه يكتف معاناته النفسية العميقة بسيطرة باردة ملأى
بالتحدي .

— في حلبة الرقص —

واقِمت في المنزل حفلة رقص كبرى ليلة رأس السنة لطلاب المنزل وضيوفهم . وكانت حفلة مريحة ممتعة : القاعة الكبيرة الواسعة تغص بالراقصين ، والاوركسترا في الزاوية تعزف بلا انقطاع ، رقصة وراء الأخرى مباشرة ، وكل شاب يرقص مع الفتاة التي يجدها دون شريك . انهم يغتنمون الفرص السريعة ليرقص كل شاب مع الفتاة التي يريد ، قبل ان يسبقه اليها زميل آخر . وبول وراء مائدته ، يود ان يشترك في الرقص ، ولكنه لا يدري على أي فتاة يميل ، فهو لا يستطيع ان يسابق الآخرين ، ويتنقل بسرعة بين الموائد ، لئلا تعثر قدماء فيسقط على الأرض في حفلة صاخبة كهذه . وما تكاد الاوركسترا تبدأ العزف حتى تخلو جميع الموائد من الفتيات ، وتكون كل فتاة بين ذراعي شاب ، فلا يلحقه الدور .

وفي غمرة اللهو والرقص والمرح لم تفطن ايلين الى بول ، حتى أشرت اليه وأنا أرقص معها في منتصف الليل . وعند ذاك التفتت اليه بتأثر وقالت :

— مسكين ! لا بد انه يتعذب . كان يجب ان يجد شيئاً

— في حلبة الرقص —

من العطف ، ولكن لن تهتمّ بذلك ايّة واحدة هنا . انهن
في غمرة اللهو الصاحب .

وسمعت حديثنا فتاة ارجنتينية كانت تراقص شابا اسبانيا
بقربنا ، فالتفتت نحوه ثم مالت عليّ وقالت ضاحكة :

— لماذا لا تتخلّص لي انت عن دورك ؟!

ثم مضت تدور مع زميلها ، وابتعدا في وسط القاعة
الرحيية المائجة بالراقصين ، وهي ما تزال تضحك ، ورنين
ضحكتها يضيع بين ضجيج الموسيقى ومرح الراقصين .

وقالت ايلين متألّة :

— سأرقص معه الرقصة القادمة .

وضحكت مشفقة ، ثم قالت بعد قليل : — أرجو ان
يحميد الرقص على الأقل ، فلا يعرّضني لسخرية الاخريات !

وفي الدورة التالية مضت ايلين الى مائدة بول ، وكان
يجرع كأسا من البيرة دون ان يرفع رأسه عن المائدة .
فتناولت يده بلطف وقالت :

- في حلبة الرقص -

- هلم بنا يابول . لم أرك ترقص ولا مرّة منذ ان بدأت
الحفلة .

فزّم بول عينيه حتى كادتا تنطبقان وهو يرفع وجهه
نحوها ، ورموشه تتراقص بسرعة ، وشدقه ممطوئان الى
حدود أذنيه ، وقال :

- أوه ! شكراً ! ولكنني كنت استمتع برقص
الآخرين .

ونهض وهو يتسم ويده بيد ايلين ، وقد انحنى كثيراً
حتى كاد وجهه يصل الى حافة المائدة لكي يتيسر طريقه وهو
يخرج من خلفها . إلاّ ان حيطته هذه لم تحمه من الارتطام
بساق الطاولة ، فاذا به يخثر راكعاً على ركبتيه ، وما تزال
ساقه الاخرى بين الطاولة والكرسي ، ثم انكفاً على وجهه ،
وانكفأت الطاولة فوقه ؛ وانقلبت الزجاجات والكأس وتحطّما
على الأرض ، وتطاير ما فيها على الارض وعلى ملابس الراقصين
والراقصات القريين ، وعلى ملابسه وملابس ايلين .

- في حلبة الرقص -

وبعاصفة من الخجل والاشفاق معا راحت ايلين تحاول ان تنهضه ، وتجمع عدد من الراقصين يعينونها ، بينما مضت الراقصات ينفضن ثيابهن مما أصابها من رشاش البيرة متأففات غاضبات . وانطلقت الضحكات من جوانب القاعة الواسعة .

وحينما نهض بول راح يسوي يديه شعره الذي تنثر على جبينه ، ويضحك مع الآخرين دون أن يظهر عليه أثر المبالاة . وسرعان ما لف ذراعه حول خصر ايلين التي لم تنفض بعد رشاش البيرة عن ثيابها ، ومضى يدور بها في وسط الحلبة على أنغام الرومبا ، وعيناه مزمومتان ، ورموشه ترف بسرعة ؛ وايلين تنظر بحذر مع كل خطوة لئلا يعود رفيقها الى الاصطدام والسقوط ، وقد انتفخ وجهها بالدم الاحمر الملتهب حياء وخجلا .

وأحس هو بحذرهما وخجلها فقال ضاحكاً ، وهو يريد ان يعبر عن تحديه لسخرية الآخرين :

- سيكون اول تأليف موسيقي لي بعنوان « سقطت في حلبة الرقص » ! انه موضوع لطيف ، أليس كذلك ؟!

— في حلبة الرقص —

وشعرت ايلين لأول مرة بالاعجاب الحارَّ بيُول ،
وبقوته النفسية الرائعة . فشدَّت يديها على ظهره وقالت :

— أنت عظيم يا بول ! انَّ ثقتك بنفسك تملأني بك
اعجابا . . . أهنتك من كل قلبي !



[... وراحت تجول يبصرها
على عشرات الموائد المستديرة
والمستطيلة والمربعة المنتشرة
هناك ... وسرعان ما انتفض
كل جسدها الملفوف بالبنطلون
الضييق المرقط ، ثم ارتبكت
قليلا وحملت عينها في جهة
ما من وسط القاعة، وما لبثت
ان انفرجت شفتاهما عن
ابتسامة عريضة ، اعرض من
احلام صباها وشبابها ...

وفيما كانت السيارة تخرج من
المنزل تطايرت من نافذتها اربع
قطع صغيرة من الورق ...]

فازر ليس بيني وبينكم

منذ ان كانت ماريا طفلة في احدى الجمهوريات اللاتينية الصغيرة ، كانت قصص الفارس العربي ، ابن الصحراء الاسمر ، ترافق خيالها واحلامها ؛ ذلك الفارس القادم من الصحراء الرملية على جواده ملتفا بعباءة فضفاضة ، وعلى رأسه كوفيته وعقاله ، كان هو الحلم الذهبي الذي يملأ دنياها الغنية باحلام الطفولة ، ثم بخيالات الشباب المتفتح : في الطفولة كانت تراه دمية جميلة فريدة تلهو بها ولكنها بها تحتفظ وتضن على التحطيم ، وفي الشباب كانت تحلم به فارسا حلوا يملأ فراشها بلذة الحب ، وایامها بنشوة السعادة . وكانت تسمع وقع حوافر جواده مع كل نقرة تنقرها بأصابعها على البيانو الذي اولعت به منذ الصغر ، والذي ما كادت تبلغ السادسة عشرة من عمرها حتى كانت من عازفيه البارعين ، وكانت تستطيع ان تحي بالغزف عليه حفلات الكونشرتو في صالات الموسيقى المعروفة ؛ وتستمتع اليها الجماهير دهشة معجبة .

وكان في بلادها عرب مهاجرون ، وكانت هي تعرف

ذلك ، ولكنها لم تكن تميز العربي من غير العربي هناك ، وكلهم يرتدون زياً واحداً ، وليس بينهم الفارس الصحراوي ذو العباءة الفضفاضة والكوفية والعقال ، وذو الوجه الملوح بشمس الصحراء الساطعة التي لا تحجبها الغيوم . ولم تكن تصدق لذلك ان في بلادها عربا مهاجرين ، وإلا لاستطاعت ان تجد فارس احلامها وخيالاتها بينهم .

وكانت تسمع منذ طفولتها ان العربي يتزوج اربع نساء ، وبيته مملوء « بالحریم » يتمتع بهن كما يطيب له . ولم يكن في من تراه في بلادها واحد لديه اكثر من زوجة واحدة ، وحكاية الحریم غريبة عن ارضها وعمن يقيمون فيها . وعلى الرغم من انها عاشرت في بلادها شبانا كثيرين ، فان الحب الذي تبث عنه لم يهتد اليه قلبها ، والصورة الغائمة لفارسها لم يبد لها لونها الصحيح بعد ؛ وما تدري متى تتضح لها ، ولا أين ، ولا كيف .

وبلغت التاسعة عشرة ، واصبحت فنانة مرموقة ، وازدادت دنياها امتلاء بالخيالات والاحلام الجميلة . ولم يكن في بلادها معهد موسقى عال تستطيع ان تتابع فيه دراستها

الموسيقية العالمية ، فجاءت الى روما وما تعرف من اللغات سوى
الاسبانية ، لغة بلادها ، ونزلت في منزل للطلاب الغرباء يعج
بالطلاب والطالبات من كل لون وجنس ولسان ولباس ،
وكأنه بابل القرن العشرين .

كانت سمراء البشرة ، ذات عينين واسعتين تضحك
لكل وجه تقعان عليه ، وذات ابتسامة ملؤها الانوثة والفتنة ،
فهي كلها ابتسامة كبيرة جميلة تمثي على قدمين تتخلجان في
المسير كأنهما ترقصان في كل خطوة تخطوانها ؛ وكان يزيد في
اغرائها وجاذبيتها انها كانت تبذل في ملابسها ، فهي حينما تخطر
بفستان قصير ، اذا جلست ارتفع الى ما فوق الركبتين ارتفاعا
مثيرا ، وطورا ينطلقون مرقط يلفها من الخصر الى الرسغ لفا
ضيقا محكما يبرز كل مفاتها ، وتارة بكلسون رياضي اسود
قصير ، لا يخفي شيئا من أعلى الفخذين حتى الخذاء ؛ وكان
نهداها دائما بارزين بشكل يدير رؤوس الشبان فلا تفارقها
عيونهم ؛ كما كانت عيناها المشرقتان الواسعتان الضاحكتان
ابدا أشبه بدعوتين صارختين الى اللذة يتلقاهما كل من تقعان
عليه من طلاب المنزل ومن ضيوفهم .

وهكذا أصبحت منذ ان وصلت الى المنزل ، ملتقى
عيون الطلاب ، ومدار همساتهم ، ومحط ابتساماتهم وانحناءاتهم
وتحياتهم ، فهم يتسارعون الى التقرب اليها ومرافقتها ومجالستها
على المائدة ؛ وهي تبسم للجميع باغراء ، وتتحدث اليهم
باسبانيتها ، فيجيبونها بالاطالية أو بلغات اخرى لا تفهمها إلا
اذا كانت مشفوعة بحركات واسارات تدل على معناها من
قريب ، ولكن للشباب لغة عالمية يتفاهم بها ولو عجزت الشفاه
عن الافصاح بحروفها الملفوظة ، ولا سيما اذا كان ذلك في
شؤون الحب .

وفي اليوم الثالث لوصولها ، وصل الى المنزل فوج من
الطلاب في زيارة قصيرة لروما ، وكان بينهم عدد من الطلاب
العرب من مختلف الاقطار ، وكان بين هؤلاء الطلاب العرب
شاب يرتدي فوق الملابس الافرنجية عباءة خفيفة هفافة ،
ويضع على رأسه كوفية وعقالا ، فكان زيه هذا مثار استغراب
الطلبة الغربيين ومحط أنظارهم . وكان يتجول في المنزل وفي
شوارع المدينة بهذه الملابس ، ويقول لمن يسأله عن ذلك انه
بهذه الملابس يشير اعجاب الفتيات الغربيات ، فيقبلن عليه ،

ويتقبلن مداعباته بسرور ولذة ، ويجعلن رحلته في اوروبا
ممتعة لذيدة وغنية بالمغامرات .

وفي موعد الغذاء من يوم وصول الفوج الجديد دخلت
ماريا قاعة الطعام الواسعة ، وراحت تجول يبصرها على عثرات
الموائد المستديرة والمستطيلة والمربعة المنتشرة هناك لتختار
واحدة يكون الى جانبها مقعد خال تجلس عليه ، وسرعان
ما انتفض كل جسدها الملفوف بالبنطلون الضيق المرقط ، ثم
ارتبكت قليلا وحملت عينها في جهة ما من وسط القاعة ،
وما لبثت ان انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة ، اعرض
من احلام صباها وشبابها ، واسرعت وقلبا يخفق بالفرح نحو
مائدة يجلس حولها ثلاثة من الشبان ، بينهم ذلك الذي يرتدي
العباءة والكوفية والعقال ، فوقفت الى جانبه تتخلج بكل ما
تملك من عوامل الاغراء والانوثة ، وامسكت بالكرسي
الخالى قربه مستأذنة في الجلوس ، فتسارعت كلمات الترحيب
من افواه الشبان العرب الثلاثة بالعربية والانجليزية ، وواحد
بايطالية لكناء مكسرة لم يكن بعد قد تعلمها جيداً . فما ان
استراحت ماريا على الكرسي حتى وضعت حقيبة يدها على

الارض ، ومدت يدها الى العباءة تتحسسها بتدله ورقة ،
وقالت وهي تنظر الى لابسها بابتسامتها الحلوة المألئ بالاغراء ،
وعينها الواسعتين المشرقتين :

Arabo ؟

فأجابها : yes ! Arabo !

وباسبانيتها التي لا يصعب فهمها على من يفهم اللغة
الايطالية ، راحت تسأله عن اسماء الملابس التي يرتديها ،
وتشفع اسئلتها بحركات واسارات تقرب فهمها ، فيترجم كلامها
رفيقه الآخر الذي يفهم الايطالية قليلا ، فيقول هو ، وهو
يمسك بملابسه قطعة بعد الاخرى :

This عباية ؛ This كوفية ؛ This عقال ، وهي تكرر
الاسماء من بعده ، ثم طلبت منه ان يكتب لها هذه الاسماء
بحروف لاتينية ، فتناول من جيبه قلما وورقة صغيرة وراح
يكتب لها . فلما انتهى من ذلك تناولت ماريا الورقة وضمتها الى
صدرها مغبطة بها ، ورفعت رأسها الى فوق ، وأغمضت عينها
وهي تضم الورقة الى صدرها بحنان ونشوة وشغف ، لتستمع
بلذة الحلم البعيد في الزمن ، الذي تحول في لحظة غير منتظرة

الى حقيقة ؛ وهتفت من اعماق صدرها كأنها تستريح من
عناء طويل مرهق : « ! Che Bello » أي : (ما أجمله !)
وكانت هذه من العبارات القليلة جداً التي استطاعت ان تتعلمها
من اللغة الايطالية حتى تلك الساعة .

وفي وسط لغات بابل المختلفة على مائدة صغيرة واحدة ،
عرفت ان اسمه (مازن) - وقد فهمته (مازم) وظلت بعد
ذلك تسميه هكذا - وانه عربي من فلسطين يدرس الهندسة
في القاهرة ، وسينهي دراسته في نهاية العام الدراسي . وانهاالت
على ذاكرتها كل القصص والاحاديث التي كانت تسمعها عن
العرب ، فسألته وهي تشير يديها وعينيها ورأسها كله ، وتهمل
في كلامها لكي تجعله مفهوماً :

— انتم تركبون الخيل في بلادكم ؟

— طبعاً ، والخيل عندنا هي اجود الخيول في العالم وأجملها ،

والعربي على ظهر جواده يشعر بأنه ملك ، وبأن الدنيا كلها
تحت قدميه .

— وتركبون الجمال ايضاً تقطعون الصحراء على ظهورها ؟

— والجمال عندنا هي مراكب الصحراء ، تسير ولا تحس

بالتعب ، وتجتاز الصحراء كالباخرة التي تعرف سبلها
في مسالك البحار .

فعادت ماريا تغمض عينيها من جديد وتتنفس تنفساً
عميقاً تنتزعه من اعماق صدرها ، وتتمتع بانخيل الجميل في
ركوب الجواد العربي الاصيل ، واجتياز الصحراء على ظهر
جمل تطل من فوق سنامه على الدنيا الحرة الواسعة ، التي لا
تغطي شمسها غيوم سوداء كثيفة ، ولا تتعالى فيها العمارات
الضخمة المتراسة كعمارات روما وغيرها من المدن الكبرى .
ثم نظرت الى مازن وقالت :

- أتمنى ان ارى بلادكم الجميلة !

- تفضلي عندنا مرة ، وستركبين الجواد ، وتسيرين في
الصحراء المضيئة على ظهر جمل ، فتشعرين بانك ملكة عظيمة ،
والصحراء كلها تحت قدميك .

فهمت من جديد تقول ، وفي عينيها اشراقة ساحرة :

(Ah! Che Bello!)

ثم استفاقت من نشوة الحلم السعيد ، ودون ان تتمهل
لتصغي الى مقاطعة الشبان الثلاثة واساراتهم المحتجة ، راحت

تقول وهي تشفع كلامها باشارات الايضاح :

— اتم العرب تتزوجون اربع نساء ، ونسأؤكم محجبات
لا تبدو وجوههن ابدأ ، ويؤتكم ملأى بنساء الحريم تستمتعون
بهن كما تشأؤون ؛ أليس كذلك ؟

والشبان الثلاثة معا يقاطعونها وهم — زون رؤوسهم
بحركات نفى عصبية ، ويقولون معا بالانكليزية وبالاطالية في
واحد : Non évero ! — Not True ! No ! , No !

وكان عسيراً ان يقنعها مازن ورفيقاه بأنها مخطئة في ما
تتصوره عن العرب ، وان قصص الف ليلة وليلة ليس لها
وجود عندهم . وكيف كان يمكن جلسة قصيرة جداً كهذه
ان تغير ما رسخ في ذهنها مدى تسعة عشر عاماً عن العرب
ونسائهم وحریمهم ؟ إلا انها قبلت كلامهم على كل حال دون
ان تقتنع به ، ودون ان تفهم منه اكثر من (No ! No !)

وبعد الغداء خرجت ماريام مع الرفاق الثلاثة ، وهي
تتأبط ذراع مازن فخورة مزهوة بأن فارس احلامها العربي
الى جانبها بعد ان عاشت تسعة عشر عاماً تبحث عن وجهه بين
الوجوه فلا تجده ، وتكاد تيأس من الوصول اليه .

كانت ايام مازن في منزل الطلاب قصيرة لا تتجاوز
الخمسة ، ولكنها كانت عامرة باللهو والعبث والمغامرات ، كما
كان يقدر حينما يُسأل عن سبب ارتدائه الملابس العربية في
روما ؛ فقد تدلّخت به ماريا حتى لم تكن لتفارقه ، فهي معه على
مائدة الطعام ، وهي رفيقته في جولاته في المدينة الكبيرة
بملابسه العربية ، وهي ملازمته في نزواته بعد الغداء والعشاء
في الشوارع القريبة من المنزل . وفي كل ليلة تذهب معه الى
السينما أو الى احد الملاهي ، فتراقصه وتتقبل مداعباته
ومغازلاته وقبلاته بلذة ووله واستسلام . و اراد هو ان يستغل
الفرصة الى أبعد مداها ، فأظهر لها الحب ، ووعداها بأن يعود
ليزوجها في نهاية العام الدراسي ، وقال لها ان أباه وأمه
سيفرحان بها كثيراً حينما يقدمها اليهما ، وستركب الجواد
العربي الاصيل في بلاده ، وتستمتع كذلك بر كوب الجمّل وهي
ترتدي الملابس العربية الى جانبه . وسألهما عن معنى : (أحبك -
أعبدك) بالاطالية ، فعلمته اياها ؛ وكتب هو العبارتين على
بطاقة صغيرة هكذا :

Ti Amo !

Ti Adoro !

ووقع تحتها : Mazen تو كيداً لحبه وعبادته لها ، فأخذت البطاقة وقبلتها بنشوة ، ثم وضعتها في علبة سجائرهما لتظل تراها وتقبلها وتضمها الى صدرها كلما فتحت العلبة لتخرج منها سيجارة . وكانت هذه البطاقة الصغيرة المفتاح الاخير الذي وصل به مازن الى ما يريد ؛ وبسذاجة بلهاء استسلمت اليه ماريا مطمئنة الى انها اصبحت له وانه اصبح لها الى الابد ، وان حالمها بالفارس العربي القادم من الصحراء قد تحقق أخيراً كما كانت تتمناه فما تبالي بنظرات الطلاب والطالبات الحبيثة اليها ، وهمساتهم من حولها وهي تسير متأبطة ذراع (مازن) تضاحكه وتغازله ، وهو بملابسه العربية وهي ينطلونها المرقط الضيق ، أو بكلسونها الرياضي الاسود الذي لا يستر منها غير العجز ... وعلى الرغم من وجودهما في منزل الطلاب ، فقد فتحت (لمازم) غرفتها ليقضي في فراشها ليلتيه الاخيرتين هناك ، ولتطلق يديها اللتين اعتادت امداعبة البيانو تعبثان في شعره ، وتتجسسان كل مكان في جسمه بلذة ونشوة تستجمع فيهما أحلام عمرهما .

ولما غادر فراشها في صبيحة يوم سفره تعلق به تغمرة

بقبيلات الوداع باكية منتحبة ، ولم تشأ ان تدعه يغادرها .
ولكي يتمكن من التخلص منها راح يؤكد لها حبه ، ويعدها
بان يكتب اليها دائما طوال مدة غيابه عنها ، وسيعود اليها بعد
أشهر ليتزوجها ويحملها معه الى بلاده ؛ ثم خرج من الغرفة
قبل ان تفتح ابواب الغرف الاخرى ويبدأ الطلاب بالخروج
الى مر المنزل الطويل ، وتركها منكفئة على فراشها تبكي كالاطفال
ومضى الى غرفته ليحزم امتهته ، ثم راح يودع رفاقه الباقين
في المنزل ويقول لهم : « لقد شبت منها ، والآن اتركها لكم
لتشبعوا اتم منها كذلك ؛ انها سهلة القيادة لكل من
يريدها ... »

وراحت جميع العيون تنظر الى ماريا ، بعد ذلك ، كلما
خرجت الى احدى ردهات المنزل ، أو الى قاعة الطعام ؛
وتتهامس الشفاه بأخبار الليالي الحمراء التي قضتها مازن في
فراشها يتظاهر لها بالحب ، وتستسلم هي الى احضان الفارس
العربي القادم من الصحراء ، والذي طالما ملأ طفولتها وشبابها
بالاحلام والخيالات الحلوة العجيبة ، بعباءته الجميلة الهفافة ،
وكوفيته وعقاله ، وبجسده الاسمر الذي لوحته شمس

الصحراء .

ومضت ماريا في حياتها ، ترافق الطلاب الآخرين في نزهاتهم وسهراتهم ، ولكن كل من كانت تصادفه منهم كان يريد ان يحل منها محل مازن ، وان ينال منها ما ناله ؛ فليس في سكان المنزل كلهم — حتى الخادmates — من لا يعرف حكاية مازن معها ؛ وكما شبع هو منها فلماذا لا يشبعون هم كذلك ؟ انها في نظرهم مجرد « مومس » غبية وليست طالبة ... بهذه الروح كان الشبان يتقربون منها ويتوددون اليها ، بينما تتجنبها الطالبات جهد استطاعتهن ، ولا يتكلمن معها إلا اذا لم يكن من ذلك الكلام مهرب . وكانت هي تمنح الشبان الذين يرافقونها ما يشاؤون من القبل ، ولكن من خديها فقط ، أما الفم فليس لهم ... لقد كرسته (لمازم) وحده لأنه وعدها بأن يعود ليتزوجها .. اللذة الي تنبعث من ثغرها مع أنفاسها الحارة ليست لهم ، بل له وحده ، وأما الخدان الجامدان فليناولوا منها ما شاؤوا من القبل ، وعشا يحاولون الوصول منها الى اكثر من ذلك . لقد كانت تعيش على الحلم الجميل في ان يعود (مازم) يوما ليتزوجها ويفر بها الى صحرائه العربية ذات الرمال الذهبية

والشمس التي لا تحجبها الغيوم .

ولكن الايام راحت تتعاقب ، وتتألف من تعاقبها الاسابيع ، ولم تتلق ماريا بطاقة أو رسالة من فارسها الذي اسلمت اليه نفسها بكل ما فيها من لهفة الحب وأوهام الشباب ، مطمئنة الى وعوده؛ حتى الصورة التي التقطت لهما معه وهي ترتدي العباءة والعقال فوق كلسونها الاسود الرياضي ، لم يرسلها اليها لتحتفظ بها تذكراً منه ... وكانت هي تكتب اليه كل يوم رسالة ، وكانت في كل رسالة منها لهفة أشد من لهفات العناق الذي كانت تستسلم اليه في أحضانها ... لقد صمت عنها أطول مما تستطيع أن تحتمل ، ومع ذلك لم تكن ترضى بأن يحدثها أحد عن (مازم) ، أو ان تسمع أنه كان يتسلى معها دون ان يكون جاداً في حديث الحب والزواج . كان مثل ذلك الحديث يثيرها فيحيلها الى لبوءة هائجة . غير ان الاسابيع العديدة التي تعاقبت دون ان تحمل اليها من (مازم) رسالة أو بطاقة ، على الرغم من رسائلها التي تجاوزت العشرين ، راحت تردها شيئاً فشيئاً الى صخرة الواقع القاسية ، لتتحطم عليها أحلامها الذهبية الطويلة .

وتملكها الألم اليأس ؛ لقد ذهب فارسها بعد ان شبع
من جسدها ، وهو الآن يتحدث عنها وعن مغامرات ايامه
ولياليه معها بزهو وخيلاء ، ويتركها الى المراتة تنهش قلبها
وتسود ايامها ولياليها .

اذن كان صحيحاً ما قاله لها بعض الشبان من ان (مازم)
تركها لهم ليشبعوا منها كما شبع هو ؟ وكان صحيحاً ما قالوه
لها من ان حديث حبه وزواجه لها كان مجرد حيلة ليصل
بها الى غرضه ؟! انها اذن في نظر جميع سكان المنزل «مومس»
وليست طالبة ... لقد أدركت الآن حقيقة خديعتها المرة ...
لعل جميع جدران المنزل الكبير ، وممراته ، وأبوابه ، وساحاته ،
والمقاعد والطاولات المنتشرة فيه ، وجميع ابواب غرفه ، كلها
تنظر اليها ، كلما تحركت ، نظرات الازدراء والاحتقار ، وكلها
تقول لها بعبارة واحدة : « لست طالبة ، ولكنك فتاة
ساقطة ! »

وفي احد الايام رأى الطلاب والطالبات سيارة تكسي
تقف أمام المنزل ، ورأوا ماريا تنزل من غرفتها يرافقها احد
الخدم حاملا حقائبها ، ثم تركب السيارة وتغادر المنزل دون

- فارس عربي -

ان تذكر لأحد اسم المكان الذي تقصد اليه . وفيما كانت
السيارة تخرج من المنزل تطايرت من نافذتها اربع قطع
صغيرة من الورق ، فأسرع احد الطلاب يجمعها عن الارض
ويرتبها الى جانب بعضها البعض ، وأخذ يقرأ فيها وهو
يضحك :

Ti Amo !

Ti Adoro !

(Mazen)

وقال احد الطلاب : لعلها لحقت به الى مصر !
وقال آخرون : بل هربت من روما لانها لم تعد تجد فيها
مساكنها !

وقال ثالث : أو لعلها عادت الى بلادها لتستر فضيحتها !
ولكن احداً منهم لم يستطع ان يعرف الجهة التي ذهبت
اليها ماريا ، لتختفي عن عيون الزملاء والزميلات الذين ينظرون
اليها برية وازدراء ، ولتدفن احلامها الطويلة بالفارس القادم
من الصحراء !



قصصه من ذر السعيد

المستشفى يعجّ بالجرحى ، والأسرّة لا تتسع لأيّ
مصاب جديد ؛ حتى الأرض أصبحت غاصّة بالجّمالات التي
ينتظر أصحابها دورهم من عناية الأطباء والمرضات ؛ وأزيز
الطائرات لا يقطع ، وقصف المدافع من سفن الأسطول
المعتدي يصمّ الآذان ، فيزيد من الفوضى في داخل المستشفى ،
ومن قلق الأطباء والمرضى الذين مضت عليهم أيام وهم يعملون
دون انقطاع : العملية تلو العملية ، والاسعافات تلو الاسعافات .
وعلى الأرض وعلى الأسرّة أصوات متألّة ، ونحيب ،
وأنين ، وحشرجات ؛ والأبواب تنفتح وتنطبق . ممرّضات
ذاهبات آثبات ، وتمرّجية يحملون النقبالات مسرعين ،
يدخلون بها ملأى ويعودون بها فارغة ليملاؤوها من جديد ؛
لقد أصبحت الجثث مكدّسة في الشوارع والأحياء : أطفال ،
نساء ، شيوخ ؛ بعضهم تحت ركام البيوت المنهارة ، وبعضهم
بين ألسنة اللهب المندلعة والمتصاعدة الى السماء . وشبان المقاومة
الشعبية يتلقون المظلات الهابطة عليهم من السماء بنيران بنادقهم

ورشاشاتهم ؛ والسما مع ذلك تقذف المظلات أفواجا وراء أفواج ، والقنابل ورصاص المدافع الرشاشة من أيدي المهابطين تسبقهم كالطر الى رؤوس المقاومين ، فتحصدهم بلا رحمة .

صرعى ودماء ، وصرخات حماس ، وأصوات فزع ، امتلأت بها الساحات والشوارع والأحياء والبيوت ، واكتظت بها المستشفيات أضعاف ما تستطيع أن تحتمل .

وفدوى تروح وتجيء بين الأسرّة في المستشفى مسرعة ، محتاجة الأعصاب ؛ هذا تضعضد جرحه ، وهذا تشرحكم رباطه ، وذلك تبحث له عن دواء ، وذلك تناوله جرعة ماء ، وهذاك تربت على كتفه محاولة تهدئته ومنعه من الصراخ . لقد كانت أعصابها في حالة من الهياج والقلق يصعب معها العمل ، ويتعذر تحكيم العقل . الا أن فدوى تعمل ، وتعمل بجد ، لأنها لهذا جاءت الى هنا ، وهي تعرف ماذا ستجد ، وتعرف في أية ظروف ستعمل .

لقد تطوّعت للعمل في بور سعيد على عجل . لأن العمل هنا يحتاج الى عدد وافر من الأيدي العاملة . وقد دفعها الى ذلك رؤيتها الغدر ينصب على إخوانها وأبناء قومها هنا ،

وعلمها أن أبناء قومها يعيشون في حُجيم من الصراع الدموي الجسار ، لا يسلم منه الشيخ ولا الطفل الرضيع ، ويجب أن يتجنّد لدفعه كل مصري وكل مصرية ؛ ودفعها كذلك شيء آخر غير أولئك ... كامل ؛ الذي سبقها الى هنا حين ظهر أن العدو سيحوّل ثقل هجومه الى منطقة القناة ؛ وراحت غاراته تتلاحق ؛ وقذائفه من الجو والبحر تتساقط مزججة مرعدة على المدينة الجميلة الرابضة على فم القناة . لقد أرسل كامل على عجل مع مئات المتطوّعين من شبّان القاهرة الذين أنهموا تدريبهم من قبل على أعمال المقاومة الشعبية ، لكي يساعدوا المدينة الباسلة ، لعلّهم يضمنون لها الصمود امام الغزوة الجاثمة .

وقبل ان يغادر القاهرة عمد الى الهاتف ، ليخبر خطيبته فدوى بسفره ، لأنه لم يكن لديه متسع من الوقت ليزورها ويودّعها ؛ ولكنها لم تدعه يغادر المدينة قبل ان تراه . فأسرعت وركبت اول سيارة لقيتها خارج البيت ، وطارت بها الى حيث كان كامل يتّهيأ مع رفاقه لركوب السيارات المعدة لنقلهم الى بور سعيد . ووصلت حينما كان كامل عند مؤخرة السيارة ، يهيم بالصعود اليها ، فرمى ربطة أمتعته الى داخل السيارة ،

- فدوى -

وجرى نحوها يتلقاها بذراعيه ويقول :

- لم يكن من الواجب أن تحييي الآن ؛ لقد قلت لك ذلك بالهاتف ! إننا لا نستطيع ان نتأخر ههنا !

- ليس من الممكن ان تذهب الي ميدان المعركة ولا اراك !

- عفواً يا فدوى ! اتمنى لو استطيع ان ابقى معك الى الأبد ؛ ولكن رفاقي في السيارة ينتظرونني كما ترين. انتِ وانا نستطيع ان ننتظر ، ولكن المعركة لا تنتظر . إن بور سعيد الآن في اشد الحاجة الى الرجال ... وداعاً !
- لا تقُل وداعاً ... الى اللقاء !

وأفلتها من بين يديه وجرى مسرعاً نحو السيارة وهو لا يفتأ يلتفت نحوها ، ويقول :

- الى اللقاء بعد المعركة ! انتظريني حتى أعود !
واجابت وهي توميء له بيدها ايماءة الوداع ، وصوتها لا يصل إليه من بين اهازيج رفاقه في السيارة :
- بل سنلتقي هناك في قلب المعركة !
ثم راحت تكفكف دموعها بمنديلها الأبيض الصغير ،

بينما انطلقت السيارة بكامل ورفاقه بأقصى سرعتها .
ولم تترث فدوى طويلاً بعد ان عادت الى البيت . لقد
تدرّبت من قبل على اعمال الاسعاف والتمريض ارتقاباً لمثل
هذا اليوم . وها هو الواجب يدعوها الآن . إن كل جزء من
ارض مصر اصبح بيتها ومقر عملها ، وكل فرد في مصر اصبح
من اسرتها المحتاجة الى رعايتها ومساعدتها ؛ وما دام كامل قد
سبقها الى بور سعيد فكانها الآن هناك الى جانبه ... إنه قد
يصاب ، فهذه حرب لا ترحم الشباب ، ولا ترثي لقلوب
المحبين وعندئذٍ من اجدر منها بان تضمد جراحه ،
وتسهر على تريضه ؟ !

وفي اليوم التالي كانت فدوى بين المرضات اللواتي
ارسلن الى بور سعيد . ولم تضع هناك شيئاً من الوقت .
الدلال والزينة والجمال لم يعد لها قيمة ؛ العمل وحده هو
المطلوب ، وهو الذي له كل القيمة . وسرعان ما برزت في
ثياب التمريض البيضاء ، وراحت تتنقل بين الأسرّة ،
تبسم لهذا ، وتلاطف ذاك ، وتضمد جراح ذلك ، وقلبها في
محبسه غير المنظور يتقلّب على الجمر .

كانت تتفرس في كل وجه ، سواء وجوه من كانوا في الأسرة ، ومن كانوا على ارض الغرف والمرات ؛ وقلبها يدق على عجل خشية أن يكون كامل بين المصايين. ولما لم تجده مضت تعمل وعيناها الى ابواب المستشفى ، وكلما دخل التمرجية يحملون مصاباً جديداً راح قلبها يخفق بشدة : لعلّه هو ! ...

وتشبك يديها على صدرها ، وتغمض عينيها وترتفع روحها الى السماء بصلاة حارة ... فاذا لم يكن هو مضت تواصل تجوالها بين الجرحى بهمة ونشاط ، الى أن يفتح الباب من جديد ، وتدخل نقالة جديدة عليها جريح آخر ، فتسرع الى ملاقاتها لتفرس في وجه الجريح الجديد .

ثلاثة أيام متلاحقة لم تم فدوى خلالها ساعتين كاملتين ؛ وطائرات الأعداء تغير فتلقى على المدينة أحمالها الجهنمية ، سرباً وراء سرب ، وموجة إثر موجة .

وفي هذا اليوم الثالث دخلت النقالة بأيدي اثنين من التمرجية . فحق قلب فدوى كما يخفق كلما انفتح الباب ليدخل مصاب جديد ؛ وأسرعت لتفرس في وجه الجريح ، وسرعان

- فدوى -

ما تراجعت عن النقبالة ، واطلقت صيحة مخنوقة ، وشبكت
كلتا يديها ، واستدارت الى الخلف تشرق في دموعها .
لقد كان هو !

كاد رأسها يدور وتسقط الى الأرض ؛ ولكنها لم
تلبث طويلاً ، بل استعادت رباطها بسرعة . إنها في قلب ميدان
المعركة ، والضعف لا يفيدها ولا يفيده ... لقد كان عليها أن
تتوقع هذا ؛ بل لقد جاءت الى هنا لأنها كانت تتوقعه ؛ فهو
جندي في قلب مجزرة مجنونة ... إنه الآن في حاجة الى
عنايتها لا الى دموعها .

فتغلّبت على ضعفها وأسهرت الى جانب الطبيب تسأله :

- أحتاج الى دم يا دكتور ؟

فهزّ الطبيب رأسه إيجاباً ، ولم يقل شيئاً . فركضت
فدوى لتتبرّع له بكمية من دمها ، وما كان أشدّ ألمها وخيبتها
حين أظهر الفحص السريع أن دمها ليس من فئة دمه ... لا
بدّ من دم آخر . وانهمرت الدموع من عيني فدوى : دموع
الخيبة واليأس معاً ... لقد كانت تريد أن تجعل دمها وسيلة
بقائه ، ولكن هذه التضحية غير ممكنة ... وأسهرت ممرضة

أخرى آلمها ما أصاب فدوى ، فطوّعت لنقل دمها الى كامل .
وكان دمها ملائماً ، وملاً المساعد زجاجة من دمها ، واسرع
ينقلها الى المصاب الذي نزف دمه غزيراً من اثر الجراح .
وارتمت فدوى على كتفي زميلتها تبكي وتشكرها
بالدموع والنفرات ، فقالت الزميلة :

- انما قدمت دمي لمصر نفسها ... كلّنا لها : هو وأنت
وأنا . أسرعي ؛ العمل يحتاج الى قوّتنا ونشاطنا .
وانتهى الطبيب من العملية السريعة التي اجراها لكامل ،
فمضت فدوى مع التمرجية الذين حملوه الى أحد الأسرّة وهو
غائب عن الوعي . وعند السرير وقفت الى جانبه تتفرّس في
وجهه ، وفي عينيه المغمضتين ، وتمسح بمنديلها الدموع المنحدرة
على وجهها برغمها ... حتى دمها لم تستطع أن تقدّمه له وهو
أحوج ما يكون الى الدم ؛ لو كان دمها يلائمه لشعرت
بالتعزية لأنها استطاعت أن تعطيه وسيلة الحياة ؛ ولكن حتى
هذه التضحية لم تستطع أن تقدّمها ، بل قدّمته ممرضة أخرى
لم تكن تعرفه ؛ السماء وحدها تعرف اية مرارة تعاني لحرماتها
من هذه التضحية التي كانت تشتهي ان تقدّمها لكامل !

ثم تركته ومضت تطوف بين الجرحى الآخرين وتبذل لهم عنايتها . انهم كلهم مثله يجودون بدمائهم ، ويقدمون ارواحهم على مذبح الوطن ، لأجل حرية مصر وانتصارها في المعركة ، فكلهم جديرون بعنايتها ، لانها هي ايضاً لمصر مثلهم .

ولكنها ما تكاد تدور دورة واحدة بين الاسرّة ، حتى تعود بها قدمها من جديد الى سرير كامل ، تتفرّس في عينيه المغمضتين ، وتحبس نبضه الذي يدق ضعيفاً خافتاً ، فتملاً نفسها الوحشة والخوف .
اتراه يعود الى الحياة !؟

وتحس بالمرارة تعصر نفسها وتوهن قواها ، ولكنها تتجلّد وتمضي في جولة جديدة بين الاسرّة ، تهدىء من روع المذعورين ، وتحاول ان تهوّن من آلام ذوي الجراح الكبيرة النازفة ، حتى لم تعد قدمها قادرتين على حملها . واحسّت بذلك اثنتان من زميلاتها فنصحتاها بأن تمضي لتستريح قليلاً . غير انها اكتفت بأن تأخذ كرسيّاً وتضعه الى جانب سرير كامل ، ثم تنحني براسها لترجحه على مقربة من

صدره ، ثم تغمض عينيها ، بينما تقذف طائرات العدو ومدافع اسطوله حممها المجنونة على المدينة المكافحة الصابرة .

ولكن النوم غير ممكن في وسط هذه المجزرة الرهيبة . ولم يلبث ان دوى انفجار هائل ، ثم هوى احد جدران المستشفى ، وتعالى الغبار والدخان بين اسرة الجرحى . فساد الذعر ، وكثر الهرج والتراكنض ، وغادر الاسرة من كان في وسعهم التحامل على انفسهم الى غرف اخرى لم يمسهـا الانفجار . وافاقت فدوى مذعورة ، فتفرست في وجه كامل الذي يخيم عليه الصمت . فلما رات بقايا الجدار تهاوى ، وينحني السقف من فوقها ميزقاً جاثيات ، والجرحى يتصايحون ويستغيثون ، وبعضهم يحرون هارين مذعورين ، والتراب الكثيف يغطي ارض الغرفة الكبيرة ، اسرعت تحمل جسد كامل مع احد التمرجية وتغادر به القاعة الى غرفة اخرى اكثر اماناً . ولم يكن هناك سرير خال تضعه عليه ، فلم تجد بداً من أن تمدده على فراش على الارض ريثما تدبر أمره .

كان كامل لا يزال غائباً عن الوعي . لقد كانت في جسده إصابتان ، احدهما لا تبعد عن القلب الا مسافة

جدّ قصيرة ، والاطباء غير واثقين بعد من أنه سيعيش . وقد مرّ على وصوله الى المستشفى عشر ساعات لم يفتح فيها عينيه ، ولا نبس بحرف ، ولا أبدى حركة تدلّ على الوعي او على الشعور .

إن قلب فدوى ليزداد وجيبه وخفقانه كلّما مرّت ساعة جديدة وكامل في حالته هذه ، لا يتغيّر ولا يبدى حراكا ؛ والعدوان الاثيم لا يزداد الاّ حدّة ، وجنود المظلات ما يزالون يهبطون على الضفة الشرقية من فم القناة ، وفي اماكن اخرى من اطراف المدينة ، بحماية الطائرات المقاتلة ، ومدافع الاسطول التي تنصبّ نيرانها بجنون رهيب على كل جزء من المدينة ، وبحماية النيران التي راحت تندلع في كل مكان بفعل القنابل المحرقة المنصبّة كالطر على المدينة .

الازيز والدويّ متلاحيان ، وهما اعنف على اسماع الاطباء والمرضات ، وعلى اسماع الجرحى والمصابين وأعصابهم من كل شيء ، حتى من الموت الخيم في كل مكان . إن ايدي الاطباء تكاد لا تعرف طريقها الصحيح في اجسام الجرحى ، والمرضات يكدن يعثرن في كل خطوة يخطونها لشدّة

الفوضى والذعر واصوات الجرحى على الارض وفي الاسرّة،
ولكثرة المزدحمين في ردهات المستشفى وممرّاته هرباً من
الموت في الخارج ، او بحثاً عن انبائهم وبناتهم بين
القتلى والجرحى .

وفي المدينة ، رغم الهلع والذعر والفوضى والنيران ،
تصميم على الموت لاجل الحياة ... من الاكواخ الصغيرة
التي تندلع فيها نيران الغزاة ، الى عربات الباعة المتجولين ،
الى ماسحي الاحذية ، الى عمّال البلدية ، الى ساكني البيوت
الفخمة واصحاب المتاجر ... حتى العكاكيز في ايدي الشيوخ
تحوّلت الى اسلحة نضال تطلّ من النوافذ والشرفات مترقّبة
مرور جنديّ من الغزاة لتنزل على رأسه ...

لم تعد بور سعيد مدينة أهلة بالسكان ، بل ثكنة كبيرة
كلّ من فيها جنود في السلاح . حتى النساء والاطفال حملوا
البنادق والرشاشات ، ومن لم يحمل سلاح النار فقد حمل
المرافات والفؤوس ؛ وكلّهم اطلقوا الرصاص وادوات
النضال الى جنود الاعداء .

ولم يكن بدّ من ان تركع المدينة الباسلة الغزلاء امام

القوّة الرهيبة المدمّرة ، ولكنها ركعة قصيرة يعقبها النصر ،
النصر الذي تخوض الموت لاجله ولو دتّستها اقدم الغزاة
المعتدين .

وطلع الصباح على المدينة الباسلة وقد صحتت البنادق
والمدافع الاّ لماماً هنا وهناك . وكان العدو قد احتلّ قسماً
من المدينة رغم المقاومة الجيّارة ، وتوقّف ليستردّ انفاسه
اللاهثة بعد ما لقيه من عناء قبل ان يطأ الارض المرتوية بسدم
النضال الباسل .

ومع الصباح فتح كامل عينيه بفتور وثقل ، ولكنه
كان ما يزال يعاني من وطأة الجراح وثقل الغيوبة . ودار
بعينه حوله بذبول مجهد ، فأحسّ بيد ناعمة تربت على يده
الثنائية على صدره ، واخرى تطوّق رأسه وتعبث بشعره .
ورأى امامه وجهاً ينظر إليه ببشاشة وحنان . فابتسم واراد
ان يقول شيئاً ، وان يرفع يده عن صدره ليضغط بها على اليد
الناعمة ، ولكنه لم يقوَ على ان ينظر او يفعل شيئاً او يفوه
بكلام . كانت جراحه شديدة الوطأة ؛ فعاد الى غيوبته من
جديد ، وانطبقت احفانه بذبول رهيب ، وراحت انفاسه

تترا كض في صدره اولاً ، ثم تخفت قليلا ، وتعود ضربات
نبضه بطيئة متناقلة خافتة كما كانت .

ففرغت فدوى واسرعت الى الطبيب تدعوه ، ولكن
الطبيب ومعاونيه جميعهم كانوا لا يزالون يسعفون الجرحى الجدد
الذين سقطوا برصاص الغدر قبل الصباح . غير ان إحدى
زميلاتهما اسرعت معها الى فراش كامل لعلها تجدان وسيلة
لا نقاذه بالمخدرات والحقن ، وما زالتا به حتى انتظمت انفاسه
قليلا .

ومن نوافذ المستشفى كانت فدوى ترى جنود العدو
المسلحين ، ودباباتهم ، عند شاطئ القناة وفي شوارع المدينة
المحاذية للشاطئ ، فتثور النعمة في صدرها ، وتود لو ملكت
القوة على سحق قواتهم المعتدية ، هذه التي نشرت الدمار
والهلاك والدمار في قومها وارضها ، وجعلت فتاها في هذه
الحالة الرهيبة . ثم تشيح فدوى بوجهها عن النوافذ لتمضي في
تأدية واجبها الانساني والوطني بين اسرة المستشفى التي تترنح
بالأنين والدمار والصراخ الاليم .

كانت تعلم انها في حاجة الى اعصابها في هذا الموقف

الشديد الخطورة . إن حياة الكثيرين من المواطنين ، إخوان كامل ، وحياة كامل كذلك ، تحتاج الى حنانها وسهرها وقوة اعصابها . ولذلك تماسكت فدوى ومضت توزّع الحنان والسمات المحببة ، مع الدواء ، وتوزّع كذلك عبارات التشجيع والمؤاساة هنا وهناك ، ولم تعد تبالي بالتعب والارق . لئن كانت هي تشكو من التعب والارق ، فان كل من حولها يئنّون ويصرخون من آلام الجراح العميقة الغائرة في مختلف اجزاء اجسامهم ، وفناها يصارع الموت في لحظاته الاخيرة من جراء جراحه .

وعند المساء عاد كامل ففتح عينيه المجهدين مرة اخرى لفترة اطول من المرة السابقة ، ولكن شحوب وجهه كان اكثر من قبل . فلما رأى فدوى بجانبه ابتسم ابتسامة شاحبة مغتصبة من جراح الموت . فانكفأت عليه تبتم وتبكي معا .

واستطاع كامل ان يخاطبها بصوت متقطع مجهد :

- لماذا اتيت الى ساحة الموت يا فدوى ؟

- لانك جئت اليها قبلي يا كامل !

- جئتُ اودّي واجبي ، واجب الرجولة . الوطن لا

— فدوى —

يُترك للاعداء بسهولة .

— وهل يدعوك الواجب ولا يدعوني مثلك ؟!

واراد كامل ان يقول شيئاً آخر ، ولكن قـواه لم
تطاوعه . فقالت فدوى متابعة :

— كيف كان يمكن ان اقضي لياليّ وايامي وانت هنا
تحوض الموت امام قوى العدوان ، وفي كل لحظة اتخيلك
ذهبت ضحية رصاصة او شظية قنبلة ؟!

فضغط كامل على يدها فوق صدره ضغطةً حاول ان
يجعلها حارّة فلم يستطع ، وجاء صوته هامساً مجهداً ، بينما تتلاقى
اجفانه بطيئة ذابلة :

— ربّنا ... يخلّـ .. ياكِ !..

ثم انطفأ النور في العينين المتعبتين ، والتوى رأس كامل
الى الجهة الاخرى . فدفنت وجهها على صدره تنتحب وتزفر
في حشرجة ممزّقة رهيبة لا تعرف كم طالت قبل ان تسرع
الممرضات ويرفعنها عن صدر كامل ، ويمضين بها الى سرير
قريب يؤاسينها ويشجّعنها ، بينما حمل التمرجية جثة كامل
الى غرفة الاموات .

ودخل الطبيب الى حيث كانت فدوى تبكي وتنتحب ،
فوضع يده على كتفها بحنان وقال مؤاسياً :
- لقد كان فتاك بطلاً ، مات وهو يحارب الاعداء
لينقذ مصر .

ولم تستطع فدوى ان تجيب ، ولكنها راحت تمسح دموعها
الحارّة بمنديلها الصغير . وعاد الطبيب يقول :
- انا اشعر بفداحة مصابك ؛ لقد فقدت حصتك الغالية ،
ولكنك نسيت ان هناك حصّة اخرى اعلى واعزّ ، هي التي
ضحىّ كامل بنفسه في سبيلها ... إنها مصر ، حصّة كل
مصريّ ، فاذا تركناها لقمة سائغة للعدوّ ، خسرناها معك
ملايين المصريين ... هيّا ، إن لكامل إخواناً آخرين ينتظرون
ابتسامتك المشرقة ، ويديك اللطيفتين لتخفيف آلامهم !

وظلت فدوى فترة اخرى لا تجيب ، ثم نهضت عن
السريّر ، ومسحت دموعها ، ثم نظرت الى الطبيب وقالت :
- لقد اصبح مكاني هنا ، بين الرجال الذين اعطوا مصر
دماءهم . سأكون بهذا وفيّة لروح رفيقهم كامل . إنهم
ينتظرونني الآن على اسرّتهم ؛ وكامل هناك على كل سريّر من

اسرّتهم !

فربت الطيب على كتفها باسمًا ، وقال :

- لست اقلّ بطولة منه ! هيّا . والله معك !

وتركت فدوى الغرفة وراحت تدور دوراتها المعتادة

بين الاسرّة العديدة ، في الغرفة نفسها التي خرج منها جثمان

كامل منذ قليل ، توزّع البسمات وعبارات المؤاساة على

الآخرين ، وليس في قلبها غير الجراح والدموع .



الفهرست

	صفحة
المقدمة	٩
عائد الى الميدان	١٩
من مذكرات والد	٣٣
استغراق	٤٧
قلوب طيبة	٥٩
منصور بك	٦٩
تومبولا	٩٩
سقطرة في حلبة الرقص	١١١
فارس عربي من الصحراء	١٢٥
فدوى	١٤٣

من

منشورات

دار الرائد

توفيق اليازجي

عيسى الناعوري

قصائد من الادب الاجني

عائد الى الميدان

يصدر قريباً

اخي الانسان (مجموعة شعرية) عيسى الناعوري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

٢- ق ١ / ١٢ - ١٩٦١

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطبعة الفنون - حلب
في ٢٧ كانون الاول ١٩٦١

● من صميم الحياة
تنبعث لتثير
حركة من فكر وشعور وحياة ؛

● من حقيقة الواقع
تنبعث باخلاص ودقة
لتعيد اليه
ما يعني

من تصميم وخير وبناء ؛

● لا تموج في أجوائها العربية الرحبة
حتى

تنطلق متسامية متعالية
في عوالم النفس الزاهرة وآفاق الانسانية الممتدة ؛

● هذه هي أقاصيص

« عائد الى الميـدان »

يطلّ بها علينا من الاردن الشقيق
الكتاب العربي المعروف عيسى الناعوري

بما

يعهد القارئ في قلمه الخيّر

من

قوة واخلاص ، وابداع وبناء
وعطاء وغذاء .





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 081685560